

أبو الطيب المتنبي

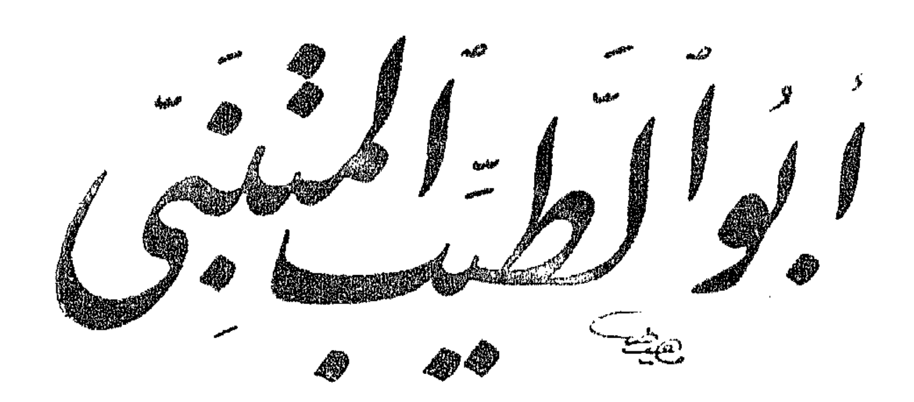
وماله وما عليه

لأبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري
المتوفى في عام ٤٢٩ من الهجرة

بتحقيق
محمد محيي الدين عبد الحميد
عفا الله عنه

يطلب من ناشره
مكتبة الحسين التجارية
لصاحبها، محمود توفيق

مطبعة حجازي بالقاهرة



وماله وما عليه

لأبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابورى

المتوفى فى عام ٤٢٩ من الهجرة

بتحقيق

محمد محيي الدين عبد الحميد

عفا الله عنه

يطلب من ناشره

مكتبة الحسين التجارية

لصاحبها : محمود توفيق

مطبعة حجازى بالقاهرة

عندي — بعد هذه المقدمات — أن يدور بحثي حول « دين المتنبي ، وأخلاقه ، وتنبئه . وموقفه من النحاة » . وما كدت أنتهي من ذلك الأمر ، وأخلص من التفكير بهذه النتيجة حتى عرض لي أمر آخر ألقيت له بالي كله ، وذلك الأمر هو المقصود بهذا المهرجان : أهو تقريظ المتنبي والثناء عليه ، إما بإطرائه وكيل المديح له إن حقا وإن باطلا ، وإما بإثارة الجميل من أخباره وشعره والإعراض عما عسى أن يغض من شأنه ، أم هو بحث المتنبي من جميع وجوهه لوجه الحق من غير تعنت ولا تحيز ؟ ولم أزل أفكر وأقدر للأمر حتى أيقنت أن هذا الحفل الذي يجمع أقطاب الأدباء والعلماء من كل قطر لا يمكن أن يستوى عنده الأمران ، فإن فرق ما بينهما أوضح من أن يدل عليه . وأي إنسان يستطيع أن ينسى الفرق بين حفل يجتمع لتكريم رجل وبين حفل يجتمع فيه صفوة الأدباء لدراسة رجل من رجال الأدب كان له أشياع وأعداء ، وكان أشياعه ينشرون مدائحه ويذيعون فضائله ويتأولون له ، وكان أعداؤه يملأون الأرض من حوله عجيجا ويرمونه بكل نقائص الإنسانية ، وهم لا يتورعون عن الكذب فيما يحدثون به من أخبار ، أليس من أول ما يلزم الباحثين أن يعرضوا مقالات أعدائه وشيعته جميعاً على موازين البحث الصحيحة ليخلصوا بنتيجة ترضى العقل وتسد حاجة التفكير ، غير مبالين أن تكون هذه النتيجة مما يتمدح به أو مما يعده الناس نقصا ؟ فإن أنا عرضت عليكم شيئا من هذا ، فهذه معذرتي وهذا رأيي . ولعلى لا أكون قد أبعدت أو جانبت الصواب فيما ذهبت إليه .

دين المتنبي

أيها السادة : لقد مني أبو الطيب بصنفين من الناس كان لكل واحد منهما من الأثر في حياته وفي أخباره التي نتوارثها إلى اليوم أقبح الأثر . ولولاهما

لعاش الرجل عيشة هادئة . ولولاهما لكانت صحيفته فى تاريخ الشعر والشعراء غير الصحيفة التى نقرؤها اليوم ، ولولاهما لما وجد الباحث عنه هذا الغموض وهذا التناقض اللذين يعانيهما الآن .

أما أحدهما فجماعة من ذوى المكانة بين الناس وأصحاب الجاه ، خافوه على أنفسهم ، ورهبوا أن تمتد مطامعه إلى مكانتهم وجاههم ، أو طمعوا منه فى أن يتملقهم ويرائيهم فيرد حضرتهم كما كان غيره يردها وكما كان هو يرد حضرة غيرهم من الملوك والأمراء ، فلم ينالوا ذلك منه ، أو دفعت أبا الطيب نوازع نفسية فنال من أعراضهم ، فكانوا لأحد هذه الأسباب أو لها كلها مجتمعة يحنقون عليه ، ويغضون من شأنه . وكانوا مع ذلك يؤلبون عليه الشعراء والعلماء لينالوا منه ويؤذوه فى نفسه وفى شعره . وكان أبو الطيب يخشاهم ويرهب سلطانهم ، بل لم يكن يخشاهم على نفسه فحسب ، وإنما خشيهم على بعض أصدقائه ومن يشفق عليه

حدث أبو إسحاق الصابى ، قال :

« راسلت أبا الطيب رحمه الله فى أن يمدحنى بقصيدتين وأعطيه خمسة آلاف درهم ، ووسطت بينى وبينه رجلا من وجوه التجار ، فقال : قل له : والله ما رأيت بالعراق من يستحق المدح غيرك ، ولا أوجب على فى هذه البلاد أحد من الحق ما أوجبت ، وإن أنا مدحتك تنكر لك الوزير (يعنى أبا محمد المهلبى) وتغير عليك ، لأننى لم أمدحه ، فإن كنت لا تبالى هذه الحال فأنا أجيبك إلى ما التمست ، وما أريد منك مالا ، ولا عن شعرى عوضا ، فتنبهت على موضع الغلط ، وعلمت أنه نصح ، فلم أعاوده » اه .

وأما الصنف الآخر فجماعة ممن كانوا يأملون أن تكون لهم المنزلة التى أدركها : من الحظوة عند الملوك ، وحرص كل واحد منهم على أن يكون أبو

الطيب من بطانته، وتنافسهم فى ذلك، فلما لم يبلغ هؤلاء المؤملون هذه الأمنية أكل الحقد عليه قلوبهم، واشتعلت جذوة الحسد بين جوانحهم، فتفننوا فى التقول عليه والدس له. ونشروا عنه من القبائح ما لم يكن يعلم من أمر أكثره شيئا، ولم يكتفوا بأن يعملوا على إبعاده عن الملوك الذين كان التقرب إليهم منتهى آمالهم. بل حاولوا التفريق بينه وبين الجمهور، فجاءوه من ناحية الدين، ثقة منهم أن للدين فى نظر جمهرة الناس وعامتهم المنزلة الأولى. فإذا أتى الرجل من جهته فقد سقط وإن بقى له كل شىء.

رموه بأنه كان رقيق الدين تاركا لأركان الإسلام، ورموه بأنه كان يستخف بالأنبياء ويستصغر شأنهم، ورموه بأنه ذهب فى الفلسفه مذهبا بعيدا عما يعتقده المسلمون، وقد نسوا ـ حين رموا أبا الطيب بذلك كله ـ أن دين الإسلام شديد الصراحة فى حكم هذه المسألة، وأنه لا يحل لمن يعتنقه أن أن يرمى أخاه بأمثال هذه التهم لإرضاء حفيظة نفسه حتى يكون بين يديه دليل لا يقبل التأويل.

ولسنا ـ حين نتشكك فى أخبار هؤلاء الناس، أو ننكر استنتاجهم ـ ندعى لأبى الطيب أنه كان رجلا صالحا ورعا يقوم الليل ويصوم النهار ويطيل العبادة وقراءة القرآن، ولكنا نفعل ذلك لنقرر أن حياة أبى الطيب قد أحاطها أعداؤه بكثير من الغموض، وأحاطوها مع هذا الغموض بكثير من الأكاذيب والمفتريات التى كان من شأنها أن تريك حياته سلسلة من المتناقضات.

حكى على بن حمزة البصرى قال: «بلوت من أبى الطيب ثلاث خلال محمودة، وتلك أنه ما كذب ولا زنى ولا لاط، وبلوت منه ثلاث خلال ذميمة. وتلك أنه ما صام ولا صلى ولا قرأ القرآن» وهذا خبر لم يذكر قائله معه وجها يقربه من الصدق. وهل يستطيع إنسان فى الدنيا أن ينفى عن آخر فعل شىء حتى يزعم أنه لزمه طول حياته فلم يفارقه، وأنه ما رآه يفعله قط؟!

ثم إن أمر الصوم في حديث علي بن حمزة أهون من أمر الصلاة وقراءة القرآن ، فهو يستطيع أن يدعى مرة أخرى أنه رأى أبا الطيب كل عام في شهر رمضان في حلب ومصر والعراق وشيراز وسائر البلاد التي وطئتها قدما أبي الطيب ، وأنه رآه مع ذلك يأكل أو يشرب نهارا ، يستطيع أن يدعى هذا كله ، وحينئذ يتم له ما أراد من أنه بلا من أبي الطيب خلة ذميمة وهي أنه ما صام ، ولكن أنى له أن يدعى ذلك ! فأما أمر الصلاة وقراءة القرآن فنحن نسائله : أكان قد لزم أبا الطيب في مغداه ومراحه ومتيقظه ومنامه حتى يستطيع أن يزعم أنه ما صلى ؟ وشيء آخر : ذلك أنه بلا منه خلة محمودة وهي أنه ما كذب ، فهل سأله عن صلاته وقراءته القرآن فحدثه وصدقه الحديث أنه ما صلى ولا قرأ القرآن ؟ والحق أن علي بن حمزة البصري رجل أراد أن يرمى أبا الطيب بما رمى به أمثاله أمثال أبي الطيب من قبل ، وبما لا يزال أمثاله يرمون به أمثال أبي الطيب إلى اليوم ، يريد بذلك أن يرضى خصوم أبي الطيب أو يشبع شهوة الانتقام منه ، وأراد أن يعمى على الناس ويحملهم على تصديقه فذكر في صدر حديثه أنه بلا منه ثلاث خلال محمودة . وهذه العبارة – فيما نعلم من أمر الناس – إحدى الدلائل على اختلاق الحديث لا هذا ، وقد ذكر أبو العلاء في شأن صلاة أبي الطيب قال : « وحدثت أن أبا الطيب أيام كان إقطاعه بصف[1] رئي يصلي بموضع بمعرة النعمان يقال له كنيسة الأعراب وأنه صلى العصر ركعتين ، فيجوز أن يكون رأى أنه على سفر وأن القصر له جائز » فهل يمكن أن يكون خبر علي بن حمزة بعد ذلك موثوقا به ؟ فأما تأول المتنبي وأنه رأى أن القصر له جائز فأمر آخر ليس بحثه من شأننا الآن . وقراءة القرآن التي زعم علي بن حمزة أن أبا الطيب لم يفعلها ، أفي الناس من

(١) قال ياقوت : « صف : ضيعة بالمعرة كانت إقطاعا للمتنبي من سيف الدولة ، ومنها هرب إلى دمشق ، ومنها إلى مصر » .

يعقل أن رجلا نشأ على حفظ اللغة واستظهار غريبها حتى رويت عنه فى ذلك الأعاجيب ، وكان يتنقل فى البوادى ليتلقطها من أفواه الأعراب – يجد القرآن بين يديه وهو كتاب لغة وأسلوب وفكر . فوق أنه كتاب هداية وخلق وآداب ، ثم لا يقرؤه ليتأسى به ويتقيل أساليبه ويتخذ من اطراد منطقه وإحكام الحجة فيه منهجا لنفسه ؟! ونحن نذكر لعلى بن حمزة أن أبا الطيب قد قرأ القرآن وفهمه ، ونذكر له مما يشير إلى ذلك قوله من قصيدة يمدح فيها كافورا :

كأن كل سؤال فى مسامعه قميص يوسف فى أجفان يعقوب

وقوله من قصيدة يمدح فيها محمد بن زريق الطرسوسى :

لو كان ذو القرنين أعمل رأيه لما أتى الظلمات صرن شموسا
أو كان لج البحر مثل يمينه ما انشق حتى جاز فيه موسى

فأما ما ذكروه من استخفافه بالأنبياء ، واستصغاره شأنهم ، وعدم مبالاته بأصول العقيدة – فقد رأينا فيما جمعناه من كلام أبى الطيب مما هو متصل بهذه المسألة أن بعض ما ذكروه أهون من أن يؤبه له كقوله :

ما مقامى بأرض نخلة إلا كمقام المسيح بين اليهود

وكقوله :

أنا فى أمة تداركها الله غريب كصالح فى ثمود

وأى شىء فى أن يشبه نفسه وهو يقيم بين قوم يعتقد أنهم أعداؤه بالمسيح عليه السلام حين أقام بين اليهود ؟ وأى شىء فى أن يدل على أن بقاءه بين قوم لا تجانس بينه وبينهم غربة تشبه اغتراب صالح عليه السلام إذ كان يعيش فى وسط لا يرون رأيه ؟

وبعض ما أخذوه عليه تجد له محملا فى الكلام لو أنت حملته عليه لم يكن به بأس . وذلك كقوله فى قصيدة مدح بها الحسين بن إسحاق التنوخى :

فما ترزق الأقدار من أنت حارم　　وما تحرم الأقدار من أنت رازق

فإنه يمكن أن يكون قد أراد أن الحسين بن إسحاق رجل موفق إلى السداد وإصابة المقادير ، فهى تجرى دائما موافقة لما اهتدى إليه . ولا شىء فى ذلك فيما نظن .

وأما بقية ما أخذوه عليه فداخل فى باب المبالغة التى تجرى على ألسنة الشعراء وهى لم تخالط قلوبهم ، وأبو الطيب كثير المبالغة فى شعره ، فنحن نأخذها عليه من الناحية الأدبية ، ولا نستدل بها على فساد عقيدته ، فمن ذلك قوله فى مدح محمد بن زريق :

لو كان للنيران ضوء جبينه　　عبدت فصار العالمون مجوسا

ومن ذلك قوله من قصيدة يقولها فى صباه :

عمرك الله هل رأيت بدورا　　طلعت فى براقع وعقود

راميات بأسهم ريشها الهد　　ب تشق القلوب قبل الجلود

يترشفن من فمى رشفات　　هن فيه أحلى من التوحيد

وقد اعتذر الناس عن قوله «هن فيه أحلى من التوحيد» بوجوه: أحدها قاله ابن جنى، وملخصه إنكار هذه الرواية والرواية الصحيحة عنده « هن فيه حلاوة التوحيد » وقد سرى إلى ابن جنى داء النحاة فى تحريف الشواهد وتغييرها على ما يوافقهم . والوجه الثانى : تفسير التوحيد بأنه ثمر من ثمار العراق حلو المذاق ، والوجه الثالث قاله العكبرى ، وملخصه أنه ليس المراد تفضيل حلاوة الرشفات على حلاوة التوحيد ، وإنما المراد تقريب حلاوتها من حلاوته ، لأن حلاوته ثابتة غير مشكوك فيها وحلاوتها غير معروفة . وذانك الوجهان من باب التمحلات البعيدة كما ترون ، وليس لنا إلا أن

نعترف بأن هذا غلو أفرط فيه أبو الطيب فتجاوز الحد .

ومن ذلك قوله من قصيدة مدح بها أبا شجاع عضد الدولة :

الناس كالعابدين آلهة وعبده كالموحد الله

وقوله من قصيدة مدح بها بدر بن عمار :

لو كان علمك بالإله مقسما في الناس ما بعث الإله رسولا

لو كان لفظك فيهم ما أنزل القرآن والتوراة والإنجيلا

وكل هذا من الغلو البعيد كما قدمنا ، ونحن نعتب عليه أنه قد أسلس العنان لفكره حتى جال في هذا الميدان ، فلا بدع أن يمتلىء من غباره وتصيبه إحدى قذائفه .

فأما ما اتهموه به من الذهاب في فلسفته مذهبا لا يقره الإسلام فإني أبادر بإنكار ذلك عليهم ، وأعرض عليكم شيئا مما ذكروه لتتبينوا بأنفسكم أنهم لم يكونوا منصفين حين نسبوه إلى ما نسبوه إليه :

زعموا أنه أنكر المعاد لقوله :

تمتع من سهاد أو رقاد ولا تأمل كرى تحت الرجام

فإن لثالث الحالين معنى سوى معنى انتباهك والمنام

وأي دليل في هذا الكلام على إنكار المعاد ؟ وأي شيء في أن تقول : إن للموت معنى غير معنى النوم واليقظة ؟ ومن ذا الذي يزعم أن معنى الموت هو معنى النوم واليقظة ، أو أن حال الإنسان فيه كحاله فيهما ؟

وزعموا أنه يرى رأي السوفسطائية الذين ينكرون ثبوت حقائق الأشياء لقوله :

هون على بصر ما شق منظره فإنما يقظات العين كالحلم

ولو كان ذلك من مذهب السوفسطائية لما جاز لأحد أن يشبه شيئاً بضده

إذا اشتركا فى أمر من الأمور . ونحن ما نزال نسمع الناس يقولون : إن نوم فلان ويقظته سواء ، إذا كان لا يستفاد من يقظته أو كان لا يجد الراحة فى نومه كما لا يجدها فى يقظته ، وما نزال نسمعهم يشبهون الموجود بالمعدوم ، والمنير بالمظلم ، وهكذا مما يجرى على الألسنة من غير أن يلتفت أحد إلى هذا الذى زعموه

ونسبوه إلى القول بقدم العالم مستنتجين ذلك من قوله فى قصيدة رثى فيها أخت سيف الدوله :

تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم إلا على شجب ، والخلف فى الشجب
فقيل : تخلص نفس المرء سالمة وقيل : تشرك جسم المرء فى العطب

وهذا استنتاج لا يقضى العجب منه . بل أنا أصارحكم — ولا ضير على فى ذلك — بأنى لم أعرف وجه هذا الاستنتاج ، ولو استنتجوا من هذين البيتين أنه ينكر المعاد لكان لاستنتاجهم وجه ، على أنه إذا صح أن يكفر رجل بهذا الكلام لوجب أن نحكم على علماء المسلمين عامة بالكفر ، ونحكم بذلك بادىء الأمر على المشتغلين بعلم الكلام والرد على فرق الملاحدة ، ذلك بأنهم يحكون لنا أقوال الكفار كما حكاها أبو الطيب فى هذين البيتين ، بل إن علماء المسلمين أولى بهذا الحكم منه ، لأنهم يذكرون مع مايحكونه من الآراء شبهة أهل هذه الآراء ، وقد يصورون شبهاتهم فى صورة الأدلة . يجب عند خصوم أبى الطيب أن يكون علماء المسلمين كفارا وإن لم يعتقدوا مايحكونه من آراء ، وإن كان عندهم من الأدلة على بطلانها مالا يدخل فى حساب أحد .

وفى الحق أن أعداء أبى الطيب لم يكونوا موفقين فيما رموه به ، وأن أبا الطيب نفسه لم يسعفه التوفيق فى كل ماجرى على لسانه .

ومما يتصل بالكلام على دين أبى الطيب أنه لم يشرب الخمر إلا فى القليل

النادر . فليس هو من المدمنين الماجنين ، ولذلك لاتجد فى شعره شيئا من المجون إلا أن يهجو فيقذع فى هجائه . وما لأبى الطيب والخمر وهى إنما يشربها الغواة وذوو البطالة ومن لامطامع لهم فى الحياة يسعون لتحقيقها . فأما الرجل الذى يفكر فى المجد ، ويأمل أن يصل إلى ذروته فليس ممن يفكرون فى الخمر .

حدثوا أن صديقا لأبى الطيب كنيته أبو ضبيس سأله يوما أن يشرب معه فأجابه بقوله :

ألذ من المدام الخندريس وأحلى من معاطاة الكؤوس
معاطاة الصفائح والعوالى وإقحامى خميسا فى خميس
فموتى فى الوغى أربى لأنى رأيت الموت فى أرب النفوس
ولو سقيتها بيدى كريم أسر به لكان أبا ضبيس

وهو ينادم إخوانه إذا شربوا الخمر فيشرب كأسا من الماء ، فقد قال له بعض بنى كلاب : أشرب هذه الكأس سرورا بك ، فأجابه بقوله :

إذا ماشربت الخمر صرفا مهنأ شربنا الذى من مثله شرب الكرم
ألا حبذا قوم نداماهم القنا يسقونها ريا وساقيهم العزم

ومد إنسان له يده بكأس من الخمر وحلف بالطلاق ليشربنها ، فقال :

وأخ لنا بعث الطلاق ألية لأعللن بهذه الخرطوم
فجعلت ردى عرسه كفارة عن شربها وشربت غير أثيم

وهذه إحدى المرات التى شرب فيها الخمر ، ولم يصب حكم الشريعة فى قوله « وشربت غير أثيم » ولكنها إحدى تظرفات الشعراء . ولعلها مع ذلك تدل على أن امتناعه عن الشرب فى غير هذه المرة لمخافة الإثم .

أخلاق أبي الطيب

سنتكلم في هذه العجالة على أربع خلال كان لها أثر ظاهر في حياة أبي الطيب وأخباره وشعره، وهي: الشجاعة، والكبر، والبخل، والغدر.

فأما شجاعته فهي أظهر من أن تلتمس لها الشواهد، فهو شجاع يحن شوقا إلى لقاء العدا، ويستصغر المخاطر في هذه السبيل، ويستهين بما يكابد فيه من أهوال، ولقد كان مسوقا إلى اقتحام الردى، تدفعه إليه نفسه المتوثبة الطامحة، وتغريه به آماله الجسام التي يحرص على إدراكها الحرص كله، والتي يعتقد أن الوسيلة إليها هي التضحية وبذل النفس، وقد كانت فيه مع ذلك عجلة تشبه الرعونة نبتت فيه من تلهفه على بلوغ الغاية التي يصبو إليها، حتى كان يخشى أن يعجل إليه الموت قبل بلوغها. انظر إليه وهو يحدثك عن المجد الذي يتطلع إليه، ويشير إلى أن الحياة أضيق من أن تتسع لانتظاره:

ذر النفس تأخذ وسعها قبل بينها فمفترق جاران دارهما العمر
ولا تحسبن المجد زقا وقينة فما المجد إلا السيف والفتكة البكر
وتضريب أعناق الملوك وأن ترى لك الهبوات السود والعسكر المجر
وتركك في الدنيا دويا كأنما تداول سمع المرء أنمله العشر

ثم انظر إليه كيف يحدثك عن مطلبه ويصف لك أن إدراكه بعيد، ويحضك على ألا تبالي بما تلقاه في حياتك من الشدائد والمحن:

أريد من زمني ذا أن يبلغني ما ليس يدركه من نفسه الزمن
لا تلق دهرك إلا غير مكترث ما دام يصحب فيه روحك البدن
فما يدوم سرور ما سررت به ولا يرد عليك الفائت الحزن

ثم انظر إليه وهو يدلك على أن هناءة العيش وسعته وطيب الحياة وسائر ما في الدنيا من متاع أمور لا تدرك إلا بحد السيف:

وخضرة ثوب العيش في الخضرة التي أرتك احمرار الموت في مدرج النمل

وتراه لايترك الحديث عن آماله وشجاعته ، حتى في المواقف التي لايحسن فيها الفخر.. ولقد كان مما اشتهر به شعره أنه يتحدث عن نفسه أثناء المديح والرثاء استمع إليه وهو يقول لكافور :

فارم بي حيثما أردت فإني أسد القلب آدمي الرواء
وفؤادي من الملوك وإن كا ن لساني يرى من الشعراء

وهو مفتون بذلك منذ صباه . ولا عجب في ذلك فإن كثيرا من الناس تولد معهم الآمال في طراءة السن وميعة الشباب . وعصر أبي الطيب الصاخب المليء بحوادث الانقلاب خليق بأن يثير في نفسه لواعج الآمال .

قيل له وهو صبي : ما أحسن وفرتك ! فأجاب :

لاتحسن الوفرة حتى ترى منشورة الضفرين يوم القتال
على فتى معتقل صعدة يعلها من كل وافي السبال

* * *

فأما الكبر فقد كان أبو الطيب متكبرا تياها صلفا : يرى أن لا أحد مثله ، وأن أعلم أهل زمانه قدم وأحزمهم وغد . وأن كل ما خلق وما لم يخلق حقير إلى جانب عظمته كشعرة في مفرقه . ولقد كان من آثار كبره أن ترفع عن مدح الوزير المهلبي والصاحب بن عباد . وحدثته نفسه أن يتأبى على عضد الدولة ، ولولا أن ابن العميد زين له الذهاب إليه وأغراه بما سيناله لديه من التكرمة والمال لكان قد امتنع . ولقد جر على نفسه بهذا الترفع عداوة الوزير والصاحب . وعداوة أشياعهما من الشعراء والكتاب والعلماء . فأما الوزير فقد أغرى به شعراء العراق يزدرونه وينالون من عرضه ويبالغون في هجائه ، وأغرى به جماعة من العلماء ــ منهم أبو الفرج صاحب كتاب الأغاني ــ يتعقبونه ويشهرون به . وأما الصاحب فلم يسكته عنه علمه بمحاسنه وكثرة

ما كان ينتفع بمعانيه ، عن أن يعد عليه سقطاته ، ويغرى به المترددين عليه الطامعين فى عطاياه ، وما أكثر هؤلاء !.

ويجب أن ندل هنا على أمرين : الأول : أن آثار كبر أبى الطيب وترفعه لم تظهر جلية واضحة إلا بعد أن اتصل بسيف الدولة ونبه شأنه ؛ فأنت تراه قبل ذلك يمدح قوما لا نباهة لهم ولا ذكر ، وتراه يمدح على أتفه العطايا . وقد تنبه إلى ذلك أبو منصور الثعالبى ، فهو يقول : «وكان قبل اتصاله بسيف الدولة يمدح القريب والغريب ، ويصطاد ما بين الكركى والعندليب » اهـ . وأبو الطيب معذور فى ذلك ، فإن سيف الدولة قد غمره بعطاياه حتى درت له أخلاف الدنيا ، ولقى فى جواره من الكرامة ما شجا حاسديه ؛ فكان خليقا أن يقول فيه :

تركت السرى خلفى لمن قل ماله وأنعلت أفراسى بنعماك عسجدا
وقيدت نفسى فى هواك محبة ومن وجد الإحسان قيدا تقيدا

الأمر الثانى : أنه قد اختلط على بعض الناس كثير من مواقف أبى الطيب فاعتبروها كبرا أو تكبرا ، وليست هى من الكبر فى شىء ، وإنما هى عزة النفس والاحتفاظ بالكرامة ، وتقدير المرء نفسه ، وإكرامه إياها ، وكل أولئك من الكبر بالمكان النائى البعيد ؛ فليس لأحد أن يزعم أن من الكبر إنشاد أبى الطيب سيف الدولة وهو جالس واشتراطه عليه ألا يقبل الأرض بين يديه ؛ إلا أن يكون ممن تختلط الأخلاق فى أنظارهم فيرونها بغير المنظار الذى يراها به الناس ، وعسيت أن تسأل بعد ذلك أين ذهبت عزة نفسه حين أنشد كافورا وهو واقف ؟ والجواب على ذلك أن ننبهك إلى أنه فارق سيف الدولة حانقا متبرما ، فلعل وقوفه بين يدى كافور وهو من أعداء سيف الدولة ليثير غيظه ، أو لعله أراد به مصانعة كافور لينال منه الذى وفد عليه من

أجله ، على أنه — وإن كان قد ترك معه ماجرت به عادته مع سيف الدولة — قد اتخذ لعزته لونا آخر ؛ فقد كان يقف بين يديه وفي رجليه خفان وفي وسطه سيفه ومنطقته .

* * *

فأما البخل فقد رماه الناس به ، وحكوا في ذلك عنه أنه حضر له مال من صلات سيف الدولة وصب بين يديه على حصير قد افترشه ، ووزن وأعيد في الكيس ، وإذا قطعة كأصغر ما يكون من ذلك المال قد تخللت الحصير ، فأكب عليها ينقرها ويعالج استنقاذها ، ويشتغل بذلك عن جلسائه ، حتى إذا ظهر له بعضها تمثل بقول قيس بن الخطيم :

تبدت لنا كالشمس تحت غمامة بدا حاجب منها وضنت بحاجب

ولم يزل كذلك حتى استخرجها ، وأمر بإعادتها إلى مكانها من الكيس . وعجيب أن يكون بخيلا ذلك الذي يقول :

ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذى صنع الفقر

ولكنهم يروون عنه أنه قال : « إني وجدت الناس لا يكرمون أحدا إكرامهم من يعتقدون أنه يملك مائة ألف دينار ، فاعتمدت أن يكون عندي مثلها ؛ فأنا أجد في ذلك حتى يقول الناس : إن أبا الطيب قد ملك مائة ألف دينار » اهـ . وإن يكن القوم صادقين وكان لأبي الطيب عذر في حرصه على المال وفي ضنه أن تضيع منه قطعة كأصغر ما يكون ، فليس هو هذا العذر الذى نسبوه إليه ؛ وإنما عذره أن بلوغ منازل المجد الذى كانت نفسه تحدثه به في حاجة إلى المال ؛ وهذه إشارة نجتزئ بها في هذا الموضوع

* * *

فأما الغدر فآيته أنك تراه كل يوم بين يدى ملك أو وزير، وتراه كلما وقف بين يدى واحد منهم يمدحه بأنه أكرم الناس، وأشجع الناس، وخير الناس. وقد يتجاوز ذلك إلى التعريض بمن مدحه من قبل، وقد يتجاوز التعريض والتلويح إلى التصريح، ثم قد يتجاوز ذلك كله إلى الهجاء:

اسمع إليه يقول لسيف الدولة:

وحاشا لارتياحك أن يبارى وللكرم الذى لك أن يباقى

ولكنا نداعب منك قرما تراجعت القروم له حقاقا

فإنه لم يكتف بأن جعل ارتياحه للبذل لا يباريه ارتياح، وكرمه لا يطاوله فى البقاء كرم، حتى جعله سيداً فحلا وجعل الناس فى موازنته حقاقا.

فلما وفد على كافور كان فى أول قصيدة قالها له قوله:

قواصد كافور توارك غيره ومن قصد البحر استقل السواقيا

ثم يقول بعد ذلك فى شأن سيف الدولة:

رأيتكم لا يصون العرض جاركم ولا يدر على مرعاكم اللبن

جزاء كل قريب منكم ملل وحظ كل محب منكم ضغن

وتغضبون على من نال رفدكم حتى يعاقبه التنغيص والمنن

فغادر الهجر ما بينى وبينكم يهماء تكذب فيها العين والأذن

وكان كلما نازعته نفسه إلى سيف الدولة واستشعر شيئاً من الأسف على فراقه يعلل نفسه بأنه لقى أهلا بأهل؛ فيقول:

وأخلاق كافور إذا شئت مدحه وإن لم أشأ تملى على فأكتب

إذا ترك الإنسان أهلا وراءه ويمم كافورا فما يتغرب

ولكنه ما عتم أن اجتوى كافورا ، وتبرم به ، ويئس مما كان أمله فيه ، فلما اعتزم أن يتركه أسف على غدره ، ونازعته نفسه إلى ممدوحه الأول ، فقال وهو يهجو كافورا :

وفارقت خير الناس قاصد شرهم　　وأكرمهم طرا لألأمهم طرا
فعاقبني المخصي بالغدر جازيا　　لأن رحيلي كان عن حلب غدرا
وما كنت إلا فائل الرأي لم أعن　　بحزم ولا استصحبت في وجهي حجرا

ومع أنه يعترف بالغدر فقد حانت له فرصة أن يعود إلى الوفاء فلم يهتبلها ، تلك أن سيف الدولة حين علم رجوعه من مصر أرسل إليه ابنه بهدية فاكتفى بأن يرسل إليه قصيدة يقول فيها :

كلما رحبت بنا الروض قلنا　　حلب قصدنا وأنت السبيل
فيك مرعى جيادنا والمطايا　　وإليها وجيفنا والذميل
والمسمون بالأمير كثير　　والأمير الذي بها المأمول
الذي زلت عنه شرقا وغربا　　ونداه مقابلي ما يزول
ومعي أينما سلكت كأني　　كل وجه له بوجهي كفيل

ويمر بعد ذلك عامان وبضعة أشهر فيرسل إليه سيف الدولة كتابا بخطه يسأله فيه المسير إليه ، فيعتذر له بقوله :

وما عاقني غير خوف الوشاة　　وأن الوشايات طرق الكذب
وتكثير قوم وتقليلهم　　وتقريبهم بيننا والخبب

وقد عاوده طبعه الذي دللنا عليه حين ورد على عضد الدولة ، فقد قال له في أول لقاء :

وقد رأيت الملوك قاطبة　　وسرت حتى رأيت مولاها

ثم يقول له بعد ذلك :

يقول بشعب بوان حصانى أعن هذا يسار إلى الطعان
أبوكم آدم سن المعاصى وعلمكم مفارقة الجنان
فقلت : إذا رأيت أبا شجاع سلوت عن العباد وذا المكان
فإن الناس والدنيا طريق إلى من ماله فى الناس ثان
لقد علمت نفسى القول فيهم كتعليم الطراد بلا سنان

وانظر إلى هذا البيت الأخير فإنه يعتذر فيه عن كل مدائحه التى قالها من قبل عضد الدولة ، بأنه كان يقولها ليروض نفسه ويعلمها ، حتى إذا اعتادت لم يحسن منه القول إلا فيه .

تنبؤه

ليس فى حياة أبي الطيب مسألة أشد غموضا من سر هذا اللقب الذى نبزوه به ، ومهما يكن فى حياته من الدقة والغموض فإنا نعترف بشدة الدقة والغموض اللذين أحاطا بهذا اللقب ، وآية ذلك أن الكتاب مازالوا يكتبون عن أبي الطيب ـ منذ كان إلى يوم الناس هذا ـ وهم يختلفون فى الإبانة عن هذا اللقب ، وكتاب عصرنا هذا يختلفون أيضا فى الاستنتاج والتعليل ، ولقد حاولت أن أقف على الوضع الحقيقى لهذه المسألة متخذا من شعره وأخباره نبراسا أستضىء به ، فأعيانى تطلابه ، ووقعت فى حيرة ولبس هما شر من الإعراض عنه ، ذلك أنه لم يعن أحد ممن عاصر المتنبي أو قرب من عصره بالبحث عما يشوقنا اليوم أن نعرفه ، بحثا يثلج صدر الحقيقة ، ويملأ قلب الناس يقينا بصحة أسبابه ونتائجه ، فكل ما بين أيدينا كلمات منثورة فى بطون الكتب جرى بعضها على ألسنة قوم عرفوا بالهوى فيه والتعصب له إلى حد التغاضى عن القبيح ، وجرى بعضها الآخر على لسان قوم لم يعرف الناس عنهم شيئا أو عرفوا عنهم الكراهية له إلى حد تشويه محاسنه . فمهمة الباحث

اليوم من أشق ما يتصوره عقل . وكل ما يمكن أن يصل إليه باحث ظنون قد لا يطول به الأمد حتى تتكشف له عن نفسها كخدعة من خدع الغرور .

حكى أبو الفتح عثمان بن جنى قال : سمعت المتنبى يقول : إنما لقبت بالمتنبي لقولى :

أنا ترب الندى ورب القوافى وسمام العدا وغيظ الحسود
أنا فى أمة تداركها الله غريب كصالح فى ثمود

وفى هذه القصيدة يقول :

ما مقامى بأرض نخلة إلا كمقام المسيح بين اليهود

وليس هذا الذى ذكره أبو الفتح إلا كالتمحلات التى يرتكبها بعض الناس بإخراج الألفاظ عن أوضاعها ومعانيها ، ذلك بأن أبا الطيب نفسه كان يتألم إذا نبزوه بهذا اللقب ، فهو يعلم حق العلم أن الناس لا يطلقون عليه ذلك تشبيها له بالأنبياء ، وإن كانت هذه الصيغة قد تستعمل فى العربية لإفادة معنى التشبيه .

وذكر أبو العلاء فى رسالة الغفران ما كان أعداء أبى الطيب يتحدثون به عنه ، فقال : « وحدثنى الثقة عنه حديثاً معناه أنه لما حصل فى بنى عدى وحاول أن يخرج فيهم قالوا له وقد تبينوا دعواه : هاهنا ناقة صعبة فإن قدرت على ركوبها أقررنا أنك مرسل . وأنه على مضى إلى تلك الناقة وهى رائحة فى الإبل فتحيل حتى وثب على ظهرها ، فنفرت ساعة وتنكرت برهة ، ثم سكن نفارها ومشت مشى المسمحة ، وأنه ورد بها المحلة وهو راكب عليها ، فعجبوا له كل العجب ، وصار ذلك من دلائله عندهم .
وحدثت أيضا أنه كان فى ديوان اللاذقية ، وأن بعض الكتاب انقلبت على يده سكين فجرحته جرحا مفرطاً ، وأن أبا الطيب تفل عليها من ريقه وشد

عليها غير منتظر ، وقال المجروح : لا تحلها فى يومك ، وعد له أياماً وليالى . وأن ذلك الكاتب قبل منه فبرئ الجرح . فصاروا يعتقدون فى أبى الطيب أعظم اعتقاد ، ويقولون : هو كمحيي الأموات . وحدث رجل كان أبو الطيب قد استخفى عنده فى اللاذقية — أو فى غيرها من السواحل — أنه أراد الانتقال من موضع إلى موضع ، فخرج بالليل ومعه ذلك الرجل ، ولقيهما كلب ألح عليهما فى النباح ، ثم انصرف ، فقال أبو الطيب لذلك الرجل وهو عائد : إنك ستجد ذلك الكلب قد مات ، فلما عاد الرجل ألفى الأمر على ما ذكر . ولا يمتنع أن يكون أعد له شيئاً من المطاعم مسموماً وألقاه له وهو يخفى عن صاحبه ما فعل » اه

وقال أبو العلاء فى رسالة الغفران مرة أخرى : « وحدثت أنه كان إذا سئل عن حقيقة هذا اللقب قال : هو من النبوة بمعنى المرتفع عن الأرض . وكان قد طمع فى شيء طمع فيه من هو دونه ، وإنما هى مقادير ، يديرها فى العلو مدير ، يظفر بها من وفق ، ولا يراع بالمجتهد أن يخفق . وقد دلت أشياء فى ديوانه أنه كان متألها ، ومثل غيره من الناس متدلها ، فمن ذلك قوله :

ولا قابلا إلا لخالقه حكما

وقوله :

ما أقدر الله أن يخزى بريته ولا يصدق قوما فى الذى زعموا

وإذا رجع إلى الحقائق ، فنطق اللسان ، لا ينبيء عن اعتقاد الجنان ، لأن العالم مجبول على الكذب والنفاق ، ويحتمل أن يظهر الرجل تدينا ، وإنما يجعل ذلك تزينا ، يريد أن يصل به إلى ثناء ، أو غرض من أغراض الخالبة أم الفناء » اه .

وأبو العلاء فى هذه العبارات مضطرب كل الاضطراب ، فبينا هو يقص

عليك معجزات أبى الطيب التى مخرق بها على بنى عدى ، إذا هو يذكر لك أنه إنما طمع فيما طمع فيه من هو دونه بعد همة وعلو نفس ، ولا يمكن أن يكون مقصوده بذلك النبوة ، ثم هو بعد ذلك يعود فيذكر أن أبا الطيب كان يعترف بالله تعالى ، ويرشدك إلى دلائل هذه العقيدة من شعره ، ويعود إلى التشكك فى دلالة هذه الأقوال على مافى نفسه ، لأن نطق اللسان لا ينبىء عن اعتقاد الجنان ، وكأن أبا العلاء كان يعانى ما نعانيه اليوم من غموض حال المتنبى وشدة خفائها .

والذى نستطيع أن نعقله أن هذا اللقب قد نبزه به أعداؤه ، وليس له حقيقة برزت فى الوجود ، وأن أبا الطيب كان يقوم بدعوة سياسية : كان يطلب الملك ويمنى نفسه به ، ويعد له عدته التى ظن أنها تصل به إليه : من المران على الحرب ، وجمع المال ، والاستكثار من الأعوان ، وتدبير المؤامرات ، ولم يكن يجسر على الجهر بذلك فى عواصم الملك التى عاش فيها . فكان يخرج إلى البوادى يتحين الفرصة ويستجمع للوثوب وتحقيق مافى نفسه من آمال ؛ وهذا سر من أسرار انتقاله من ملك إلى ملك ، وقد ساعده على هذا الحلم اللذيذ ما كان يقع تحت نظره كل يوم من ثورات وفتن وانقلاب ، وقوة إيمانه بأنه أفضل من سعت به قدم . وكان ربما قنع بأقل من الملك فرغب فى ولاية من الولايات يخلعها عليه كافور ، ولعل هذه القناعة لم تكن إلا لأنه فهم أن الولاية سبب يصل من طريقه إلى الملك كالذى كان يراه فى جماعة من ملوك عصره . ولعل كافورا لم تخف عليه سريرته فحرمه الولاية التى كان وعده إياها ؛ ولعله هو نفسه قد شعر بأن كافورا فطن لدخيلة نفسه ففر من مصر تحت جنح الليل ، أفلست تراه يقول لكافور أول وروده عليه :

وغير كثير أن يزورك راجل فيرجع ملكا للعراقين واليا

حتى إذا تأخر عنه جواب كافور ، وخشى أن يفوته المأمول ، أو أن يظن به عدم الكفاية للاضطلاع بأعباء الولاية . عاوده بقوله :

فارم بى حيثما أردت فإنى أسد القلب آدمى الرواء
وفؤادى من الملوك وإن كا ن لسانى يرى من الشعراء

ولم يزل يظهر لكافور تلهفه على إنجـــاز موعوده ، بالتعريض مرة وبالتصريح مرة أخرى ، حتى أدركه اليأس ، وعلم أن فى الأمر شيئاً ، انظر إلى قوله :

إذا لم تنط بى ضيعة أو ولاية فجودك يكسونى وشغلك يسلب

ثم انظر الى قوله :

وهل نافعى أن ترفع الحجب بيننا ودون الذى أملت منك حجاب
وفى النفس حاجات وفيك فطانة سكوتى بيـــان عندها وخطاب

قال أبو منصور الثعالبي : « ومازال فى برد صباه إلى أن أخلق برد شبابه وتضاعفت عقود عمره ، يدور حب الولاية والرياســـة فى رأسه ، ويظهر مايضمر من كامن وسواسه ، فى الخروج على السلطان، والاستظهار بالشجعان ، والاستيلاء على بعض الأطراف ، ويستكثر من التصريح بذلك فى مثل قوله

لقد تصبرت حتى لات مصطبر فالآن أقحم حتى لات مقتحم
لأتركن وجوه الخيل ساهمة والحرب أقوم من ساق على قدم

وكقوله :

سأطلب حقى بالقنا ومشايخ كأنهم من طول ما التثموا مرد
ثقال إذا لاقوا خفاف إذا دعوا كثير إذا شدوا قليل إذا عدوا

وطعن كأن الطعن لا طعن بعده وضرب كأن النار من حره برد

إذا شئت حفت بي على كل سابح رجال كأن الموت في فمها شهد

« وكان كثيراً مايتجشم أسفاراً بعيدة أبعد من آماله . ويمشي في مناكب الأرض ، ويطوي المناهل والمراحل ، ولا زاد إلا من ضرب الحراب ، على صفحة المحراب » اه

هذه فيما نعتقد حقيقة حاله . فأما ادعاء النبوة فلا نستطيع أن نتقبله مهما زعم الناس أن العصر الذي عاش فيه ، ورغبته في أن يكون أبعد أهل عصره أملا ، وكثرة الدعوات الدينية والسياسية ، كل أولئك تقرب إلى العقل أنه ادعى النبوة ، نقول ذلك بعد علمنا تقدير الناس لمقام النبوة ورسوخ عقيدة الإسلام في أذهانهم ، ومنها أن محمدا صلى الله عليه وآله وسلم ختام الأنبياء ، حتى إن الدعوات الدينية التي ادعاها المدعون بعد ذلك لم تكن إلا في نواحي الإمامة وما يتصل بها ، إلا أن يكون المدعي قد أصابه مس من الشيطان فغلب على عقله .

ونحن نرى كل هذه الدعوات كانت تستند إلى نصوص يزعم الراوون لها أنها صدرت عن رسول الله ، أو أفهام في نصوص أخرى ثابتة ، ولو أن أبا الطيب كان قد ادعى النبوة لما وجد من الناس من ينتظر عليه حتى يتم دعواه ، ولعله لم يكن من الحكمة في دعواه التي ارتضينا أمرها بحيث يخفي شأنه فكان لذلك لا يأمن جانب أحد ، وكان لا يدخل بلدا إلا لتقذف به إلى بلد ، ثم كانت بعد ذلك نهايته المحتومة .

أبو الطيب والنحاة

ليس يسوغ لي في مستهل هذا البحث أن أغفل أن أبا الطيب كان قد أخذ من العربية بأوفر حظ ، فهو حافظ لغريبها حفظ الباحث المستقصي حتى

ليسأله أبو على الفارسى : كم لنا من الجموع على وزن فعلى ؟ فيبادره بقوله : حجلى وظربى ، ويبحث أبو على ليلته فى كتب اللغة لعله يعثر لهما على ثالث فلا يجد ، ويقول أبو على فى شأنه : « ما رأيت رجلا فى معناه مثله » وهذه الشهادة من أبى على الذى كان يناصبه العداوة ويتحامل عليه كافية للدلالة على قدره . وكان مع اطلاعه على مفردات اللغة وغريبها عالما بمواطن استعمالها ، متمكنا من قواعدها ، خبيرا بلغات القبائل ، وله شعر جزل لا نظير له فى شعر أحد من شعراء العربية ، وقد خلا كثير من شعره من كل مأخذ ، وتجانب كل انتقاد ، ولكن له مع ذلك شعرا قد جانب الطرق المشهورة فى العربية إلى طرق لا يقرها النحاة الذين جعلوا مهمتهم تتبع المعروف الجارى على الألسنة ، ورسموه قواعد أرادوا أن تكون هى لسان الناس عامة . وإن يكن أحد قد نال من أبى الطيب فى حياته و بعد موته منالا له وجه صحيح وقد بقى أثره والدليل عليه ، فأولئك هم النحاة . ولسنا نعنى بالنحاة علماء الإعراب فحسب ، وإنما نريد بهم كل من كان يتكلم فى فرع من فروع العربية ، فهؤلاء هم الذين كان أبو الطيب يضيق بهم ذرعا وتتألم نفسه إذا وجه واحد منهم خطابه إليه ؛ وكيف لا يضيق صدره وشعره هو وسيلته التى يكتسب بها رضا الناس وهم يعمدون إلى هذه الوسيلة فيضعفون من شأنها ويحاولون أن يقللوا من قيمتها ؟ ولم يكن النحاة فيما نعتقد قد أكثروا من تعقبه والحملة عليه لوجه العلم ولا انتصارا للحق ، وإنما كان ذلك منهم سلاحا من أسلحة السياسة التى وجهت إلى الرجل ، وليس يعنينا بحث ذلك الآن ، ولكننا نذكر أنه — مع عدم توافر حسن النية — قد أمكن للنحاة أن يجدوا فى شعر أبى الطيب ما يستمسكون به عليه ، ويتخذونه ذريعة للتشفى منه ولإرضاء سادتهم ، وكانوا يجبهونه بذلك أحيانا ، وكانت تأخذه العزة فيسب ويقذع فى سبابه أحيانا شأن المغيظ المحنق الذى يداخله الشك فى أمرهم ، وكان ربما ضن عليهم بالإجابة فأحالهم على بعض أصدقائه من النحاة . حدثوا أن ابن خالويه وجه

إلى أبي الطيب نقدا في حضرة سيف الدولة فقـــال له أبو الطيب : اسكت ويحك فإنك أعجمي فمالك وللعربية ! وكان مع ابن خالويه مفتاح فضربه به فشج رأسه ، وحدثوا أن سائلا سأله عن قوله في مطالع قصيدة مدح بها أبا الفضل بن العميد :

بادهواك صبرت أم لم تصبرا وبكاك أن لم يجر أو أجرى

فقال له : كيف قلت لم تصبرا ؟ فقال : لو كان أبو الفتح حاضرا لأجاب . يريد أبا الفتح عثمان بن جني وكان صديقا حميما له .

وبعض المآخذ التي أخذها عليه النحاة تافه . أو لا وجه له . كالذي حدثوا أن ابن خالويه سمعه ينشد سيف الدولة :

وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه بأن تسعدا والدمع أشفاه طاسمه

فقال له : يا أبا الطيب ، إنما يقال شجاه ، يتوهمه فعلا ماضيا ، فقال له أبو الطيب : اسكت فما وصل الأمر إليك ، يعني أنه أفعل تفضيل

وبعض المآخذ التي أخذوها عليه صحيح لا شبهة في أنه أخطأ فيه الجادة كالتعقيد اللفظي والمعنوي ، واستعمال الغريب الوحشي ، والعدول عن سنن القياس ، وقبح بعض المطالع وبعض المقاطع ، واستعمال اللغات المهجورة وأمثلة ذلك كله ميسورة قريبة التناول .

وفي كتب علماء البلاغة أمثلة وشواهد كثيرة من شعر المتنبي يعدون بعضها في عيون الشعر ومحاسنه . ويعدون بعضها الآخر في رذيل الشعر ومستكرهه .

أما علماء الإعراب فقد جروا على قاعدتهم ـ في عدم الاحتجاج بشعر المولدين ـ مع أبي الطيب ، ولكن كثيرا منهم يذكر أبياتا من شعره في موطن من ثلاثة مواطن : موطن التمثيل لا الاستشهاد . وموطن مخالفة القياس . وموطن التطبيق وذلك في المعقد من شعره . وقد ذكر العلامة رضي الدين

فى شرح الكافية بعض أبيات المتنبي على أنها مخالفة للقياس ، وللعلامة المحقق جمال الدين بن هشام صاحب مغني اللبيب ولأبي السعادات بن الشجرى فى أماليه شروح وتخريجات لأبيات كثيرة من معقد أبيات أبي الطيب ، وقد كان لأبي الفتح عثمان بن جنى صديق المتنبي اليد الطولى فى توجيه أنظارهما إلى هذه الناحية بما بذله من جهد فى تخريج شعر المتنبي ، حتى كان أبو الطيب نفسه يقول له : « إنى لم أقل هذا الشعر لهؤلاء النحاة ، وإنما أقوله لك » .

كتبه

المعتز بالله تعالى : أبو رجاء

محمد محيي الدين عبد الحميد


أبو الطيب المتنبي

أبو الطيب المتنبي ، وماله وما عليه *

هو - وإن كان كوفى المولد - شامى المنشأ ، وبها تخرج ، ومنها خرج . نادرة الفلك ، وواسطة عقد الدهر ، فى صناعة الشعر ، ثم هو شاعر سيف الدولة المنسوب إليه ، المشهور به ، إذ هو الذى جذب بضبعه[1] ، ورفع من قدره ، ونفق سعر شعره ، وألقى عليه شعاع سعادته ، حتى سار ذكره مسير الشمس والقمر ، وسافر كلامه فى البدو والحضر ، وكادت الليالى تنشده ، والأيام تحفظه ، كما قال وأحسن ما شاء [من الطويل] :

وما الدهر إلا من رواة قصائدى ... إذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا
فسار به من لا يسير مشمرا ... وغنى به من لا يغنى مغردا

وكما قال [من المتقارب] :

ولى فيك ما لم يقل قائل ... وما لم يسر قمر حيث سارا
وعندى لك الشرد السائرا ... ت لا يختصصن من الأرض دارا
إذا سرن من مقول مرة ... وثبن الجبال وخضن البحارا

هذا من أحسن ما قيل فى وصف الشعر السائر ، وأبلغ منه قول على بن الجهم حيث قال [من الطويل] :

ولكن إحسان الخليفة جعفر ... دعانى إلى ما قلت فيه من الشعر

---

* اقرأ ترجمة أبى الطيب فى وفيات الأعيان لابن خلكان (١/٦٢ النيل) وفى المنتظم لابن الجوزى (٦/١٤ - ٢٠) وفى ما لا يحصى من المراجع .

(١) كناية عن أنه رفعه وأعلى قدره ، وفى معناه قول العامة فى ديار مصر « أخذ بيده » .

فسار مسير الشمس فى كل بلدة وهب هبوب الريح فى البر والبحر

فليس اليوم مجالس الدرس ، أعمر بشعر أبي الطيب من مجالس الأنس . ولا أقلام كتاب الرسائل ، أجرى به من ألسن الخطباء فى المحافل ، ولا لحون المغنين والقوالين ، أشغل به من كتب المؤلفين والمصنفين . وقد ألفت الكتب فى تفسيره . وحل مشكله وعويصه ، وكسرت الدفاتر على ذكر جيده ورديئه . وتكلم الأفاضل فى الوساطة بينه وبين خصومه ، والإفصاح عن أبكار كلامه وعونه[١] . وتفرقوا فرقا فى مدحه والقدح فيه والنضح عنه[٢] ، والتعصب له وعليه . وذلك أول دليل دل على وفور فضله ، وتقدم قدمه ، وتفرده عن أهل زمانه ، بملك رقاب القوافى ، ورق المعانى ، فالكامل من عدت سقطاته ، والسعيد من حسبت هفواته ، ومازالت الأملاك تهجى وتمدح .

وأنا مورد فى هذا الباب ذكر محاسنه ومقابحه ، وما يرتضى وما يستهجن من مذاهبه فى الشعر وطرائقه . وتفصيل الكلام فى نقد شعره ، والتنبيه على عيونه وعيوبه ، والإشـــارة إلى غرره وعرره ، وترتيب المختار من قلائده وبدائعه ، بعد الأخذ بطرف من طرق أخباره ومتصرفات أحواله ، وما تكثر فوائده وتحلو ثمرته ، ويتميز هذا الباب به عن سائر أبواب الكتاب كتميزه عن أصحابها بعلو الشأن ، فى شعر الزمان ، والقبول التام ، عند أكثر الخاص والعام .

ذكر ابتداء أمره

ذكرت الرواة أنه ولد بالكوفة فى كندة[٣] سنة ثلاث وثلاثمائة ، وأن أباه

---

(١) العون ــ بضم العين ــ جمع عوان ، وهى النصف من النساء ، وفي القرآن (عوان بين ذلك) .

(٢) النضح عنه : أراد الدفاع عنه .

(٣) كندة : محلة بالكوفة ، وإليها ينسب فيقال « الكندى »

سافر إلى بلاد الشام ، فلم يزل ينقله من باديتها إلى حضرها . ومن مدرها إلى وبرها ، ويسلمه في المكاتب ، ويردده في القبائل . ومخايله نواطق الحسنى عنه . وضوامن النجح فيه ، حتى توفي أبوه وقد ترعرع أبو الطيب وشعر وبرع . وبلغ من كبر نفسه وبعد همته أن دعا إلى بيعته قوما من رائشي نبله (١) ، على الحداثة من سنه والغضاضة من عوده ، وحين كاد يتم له أمر دعوته تأدى خبره إلى والي البلدة ، ورفع إليه ما هم به من الخروج . فأمر بحبسه وتقييده ، وهو القائل في الحبس قصيدته التي أولها [من المتقارب] :

أيا خدد الله ورد الخدود   وقد قدود الحسان القدود

ومنها استعطافه ذلك الأمير والتنصل مما قذف به :

أمالك رقي ، ومن شأنه   هبات اللجين وعتق العبيد

دعوتك عند انقطاع الرجا   ء ، والموت مني كحبل الوريد

دعوتك لما براني البلى   وأوهن رجلي ثقل الحديد

ومنها :

وقد كان مشيهما في النعال   فقد صار مشيهما في القيود

وكنت من الناس في محفل   فها أنا في محفل من قرود

تعجل في وجوب الحدود   وحدي قبل وجوب السجود!

أي : إنما تجب الحدود على البالغ ، وأنا صبي لم تجب علي الصلاة بعد ، ويجوز أن يكون قد صغر سنه وأمر نفسه عند الوالي ، لأن من كان صبياً لم يظن به اجتماع الناس إليه للشقاق والخلاف

---

(١) دعا إلى بيعته : يريد أنه طلب الملك ، وهذا هو ما نعتقده في أبي الطيب أما ادعاء النبوة فإما أن يكون اختلاقا عليه وهو الغالب ، وإما أن يكون مخرقة منه وازدراء بالناس ، ورائشي نبله : كناية عمن يقوى بهم ساعده . تقول : راش النبل بريشه ، إذا لز فيه الريش ليقوى .

ومن شعره فى الحبس ما كتب به إلى صديق له قد كان أنفذ إليه مبرة [من المنسرح] :

أهون بطول الثواء والتلف والسجن والقيد ، ياأبا دلف
غير اختيار قبلت برك بى والجوع يرضى الأسود بالجيف

يشبه قول أبى عيينة [من مخلع البسيط] :

ما أنت إلا كلحم ميت دعا لى إلى أكله اضطرار

(رجع)

كن أيها السجن كيف شئت فقد وطنت للموت نفس معترف
لو كان سكناى فيك منقصة لم يكن الدر ساكن الصدف

ويحكى أنه تنبأ فى صباه ، وفتن شرذمة بقوة أدبه ، وحسن كلامه . وحكى أبو الفتح عثمان بن جنى قال : سمعت أبا الطيب يقول : إنما لقبت بالمتنبي لقولى [من الخفيف] :

أنا ترب الندى ورب القوافى وسمام العدا وغيظ الحسود
أنا فى أمة تداركها اللـ ـه غريب كصالح فى ثمود

وفى هذه القصيدة يقول :

ما مقامى بأرض نخلة إلا كمقام المسيح بين اليهود

وما زال فى برد صباه إلى أن أخلق برد شبابه ، وتضاعفت عقود عمره ، يدور حب الولاية والرياسة فى راسه ، ويظهر ما يضمر من كامن وسواسه ، فى الخروج على السلطان ، والاستظهار بالشجعان ، والاستيلاء على بعض الأطراف ، ويستكثر من التصريح بذلك فى مثل قوله [من البسيط] :

لقد تصبرت حتى لات مصطبر فالآن أقحم حتى لات مقتحم
لأتركن وجوه الخيل ساهمة والحرب أقوم من ساق على قدم

[والطعن يحرقها والزجر يقلقها حتى كأن بها ضربا من اللمم
قد كلمتها العوالى فهى كالحة كأنما الصاب مذرور على اللجم](١)
بكل منصلت مازال منتظرى حتى أدلت له من دولة الخدم
شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة ويستحل دم الحجاج فى الحرم

وقوله [من الطويل] :

سأطلب حقى بالقنا ومشايخ كأنهم من طول ما التثموا مرد
ثقال إذا لاقوا ، خفاف إذا دعوا كثير إذا شدوا ، قليل إذا عدوا
وطعن كأن الطعن لا طعن بعده وضرب كأن النار من حره برد
إذا شئت حفت بى على كل سابح رجال كأن الموت فى فمها شهد

وقوله [من الطويل] :

ولا تحسبن المجد زقاً وقينة فما المجد إلا السيف والفتكة البكر
وتضريب أعناق الملوك ، وأن ترى لك الهبوات السود والعسكر المجر
وتركك فى الدنيا دويا كأنما تداول سمع المرء أنمله العشر

وقوله [من البسيط] :

وإن عمرت جعلت الحرب والدة والسمهرى أخا ، والمشرفى أبا
بكل أشعث يلقى الموت مبتسما حتى كأن له فى قتله أربا
قح يكاد صهيل الخيل يقذفه من سرجه مرحاً للعز أو طربا
الموت أعذر لى ، والصبر أجمل بى ، والبر أوسع ، والدنيا لمن غلبا

وكان كثيراً ما يتجشم أسفاراً بعيدة أبعد من آماله ، ويمشى فى مناكب الأرض ، ويطوى المناهل والمراحل ، ولا زاد إلا من ضرب الحراب ، على

---

(١) هذا البيت والذي قبله ساقطان من ب .

صفحة المحراب (١) . ولا مطية إلا الخف أو النعل ، كما قال [من المنسرح] :

لا ناقتي تقبل الرديف ولا بالسوط يوم الرهان أجهدها
شراكها كورها ، ومشفرها زمامها ، والشسوع مقودها

وإنما ألم في هذا المعنى بأبي نواس في قوله [من الطويل] :

إليك أبا العباس من بين من مشى عليها امتطينا الحضرمي الملسنا (٢)
قلائص لم تعرف حنيناً على طلا ولم تدر ما قرع الفنيق ولا الهنا (٣)

وكما قال في شكوى الدهر ووصف الخف [من الكامل] :

أظمتني الدنيا فلما جئتها مستسقيا مطرت على مصائبا (٤)
وحبيت من خوص الركاب بأسود من دارش فغدوت أمشي راكبا

وكما قال في الاعتداد بالرحلة ، والقدرة على الرجلة [من المنسرح] :

ومهمه جبته على قدمي تعجز عنه العرامس الذلل (٥)
[بصارمي مرتد ، بمخبرتي مجتزىء ، بالظلام مشتمل] (٦)

---

(١) أراد بالمحراب ههنا العنق ، يريد أنه ينتهب الناس بعد ما يقتلهم .

(٢) أراد بالحضرمي الملسن النعل الذي يلبسه في رجله .

(٣) قلائص : هي في الأصل النوق الشواب ، والطلا ، هنا : الصغير من ولد الابل ، والفنيق : الفحل من فحولة الابل ، والهنا : طلي الابل الجربى بالقطران ، وإذا كان هو إنما يريد نعله فان النعل لا يعرف شيئا من ذلك .

(٤) أظمتني : أصلها أظمأتني ـ بالهمز ـ فسهل الهمزة فصارت ألفا ، ثم حذفها كما تحذف الألف الأصلية

(٥) العرامس : النوق الشديدة ، والذلل ـ بضمتين ـ جمع ذلول ، وهو السهلة القياد .

(٦) هذا البيت ساقط من ب

إذا صديق نكرت جانبه لم تعيني فى فراقه الحيل
فى سعة الخافقين مضطرب وفى بلاد من أختها بدل

وشتان ما بين حاله هذه والحال التى قال فيها [من البسيط] :

وعرفاهم بأنى من مكارمه أقلب الطرف بين الخيل والخول

وكان قبل اتصاله بسيف الدولة يمدح القريب والغريب . ويصطاد مابين الكركى والعندليب .

ويحكى أن على بن منصور الحاجب لم يعطه على قصيدته فيه التى أولها [من الكامل] :

بأبى الشموس الجانحات غواربا [اللابسات من الحرير جلاببا]

ومنها :

حال متى علم ابن منصور بها جاء الزمان إلى منها تائبا

إلا دينارا واحدا ، فسميت الدينارية .

ولما انخرط فى سلك سيف الدولة . ودرت له أخلاف الدنيا على يده : كان من قوله فيه [من الطويل] :

تركت السرى خلفى لمن قل ماله وأنعلت أفراسى بنعماك عسجدا
وقيدت نفسى فى هواك محبة ومن وجد الإحسان قيدا تقيدا

وهذا البيت من قلائده ، وإنما ألم فيه بقول أبى تمام [من الكامل] :

همى معلقة عليك رقابها مغلولة ، إن الوفاء إسار

ولكنه أخذ عباءة وردها ديباجا ، وأرسلها مثلا سائرا ، وكرر هذا المعنى فزاد فيه حتى كاد يفسده فى قوله [من الكامل] :

يا من يقتل من أراد بسيفه أصبحت من قتلاك بالإحسان

* * *

نبذ من أخباره

لما أنشد سيف الدولة قصيدته التي أولها [من البسيط] :

أجاب دمعي وما الداعي سوى طلل دعا فلباه قبل الركب والإبل

وناوله نسختها وخرج فنظر فيها سيف الدولة ، فلما انتهى إلى قوله :

يا أيها المحسن المشكور من جهتي والشكر من جهة الإحسان ، لاقبلي

[ما كان نومي إلا فوق معرفتي بأن رأيك لا يؤتى من الزلل]

أقل أنل أقطع احمل عل سل أعد زد هش بش تفضل أدن سر صل

وقع تحت أقل : قد أقلناك ، وتحت أنل : يحمل إليه من الدراهم كذا ، وتحت أقطع : قد أقطعناك الضيعة الفلانية ضيعة ببلاد حلب ، وتحت احمل : يقاد إليه الفرس الفلاني . وتحت عل : قد فعلنا ، وتحت سل : قد فعلنافاسل ، وتحت أعد : أعدناك إلى حالك من حسن رأينا . وتحت زد : يزاد كذا ، وتحت تفضل : قدفعلنا ، وتحت أدن : قد أدنيناك ، وتحت سر : قد سررناك . وتحت صل : قدفعلنا .

قال ابن جني : فبلغني عن المتنبي أنه قال : إنما أردت سر من السرية ، فأمر له بجارية .

قال : وحكى لي بعض إخواننا أن المعقلي — وهو شيخ كان بحضرته ظريف — قال له — وحسد المتنبي على ما أمر به — : يا مولاي قد فعلت به كل شيء سألك ، فهلا قلت له لما قال لك هش بش : هه هه هه ، يحكي الضحك ، فضحك سيف الدولة . فقال له : ولك أيضاً ما تحب . وأمر له بصلة .

وذكر القاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز في كتاب « الوساطة » أن أبا الطيب نسج على منوال ديك الجن فقال [من الخفيف] :

احل وامرر وضر وانفع ولن واخـ شن ورش وابر وانتدب للمعالي

وحكى ابن جنى قال : حدثنى أبو على الحسين بن أحمد الصنوبرى ، قال : خرجت من حلب أريد سيف الدولة ، فلما برزت من السور إذا أنا بفارس متلثم قد أهوى نحوى برمح طويل ، وسدده إلى صدرى ، فكدت أطرح نفسى عن الدابة فرقا ، فلما قرب منى ثنى السنان وحسر لثامه[١]، فإذا المتنبى ، وأنشدنى [من الطويل] :

نثرنا رءوسا بالأحيدب منهم كما نثرت فوق العروس الدراهم

ثم قال : كيف ترى هذا القول ؟ أحسن هو ؟ فقلت له : ويحك ! قد قتلتنى يا رجل ، قال ابن جنى : فحكيت أنا هذه الحكاية بمدينة السلام لأبى الطيب ، فعرفها وضحك لها ، وذكر أبا على من التقريظ والثناء بما يقال فى مثله .

قال : وأنشدت أبا على ليلا قصيدة أبى الطيب التى أولها [من البسيط] :

* واحر قلباه ممن قلبه شبم[٢] *

فلما وصلت إلى قوله فيها :

وشر ما قنصته راحتى قنص شهب البزاة سواء فيه والرخم

أعجب جداً به ، ولم يزل يستعيده ، حتى حفظه ، ومعناه : إذا تساويت ومن لا قدر له فى أخذ عطاياك فأى فضل لى عليه ؟ وما كان من الفائدة كذا لم أفرح به ، وإنما أفرح بأخذ ما تختص به الأفاضل

قال : وحدثنى المتنبى قال : حدثنى فلان الهاشمى من أهل حران بمصر

---

(١) حسر لثامه : أزاله عن وجهه ، فانكشف وجهه وظهر

(٢) شبم ــ بفتح الشين وكسر الباء ــ أراد به البارد لأنه لم يداخله الحب فلم يحترق بناره

قال : أحدثك بطريفة ، كتبت إلى امرأتي وهي بحران كتابا تمثلت فيه ببيتك [من البسيط] :

بم التعلل لا أهل ولا وطن ولا نديم ولا كأس ولا سكن ؟

فأجابتني عن الكتاب ، وقالت : ما أنت والله كما ذكرته في هذا البيت ، بل أنت كما قال الشاعر في هذه القصيدة :

سهرت بعد رحيلي وحشة لكم ثم استمر مريري وارعوى الوسن

قال : ولما سمع سيف الدولة البيت الذي يتلوه وهو قوله :

وإن بليت بود مثل ودكم فإنني بفراق مثله قمن

قال : سار وحق أبي

قال : ولما سمع قوله لفنا خسرو [من المنسرح] :

وقد رأيت الملوك قاطبة وسرت حتى رأيت مولاها

قال : ترى هل نحن في الجملة ؟

سمعت أبا بكر الخوارزمي يقول : كان أبو الطيب المتنبي قاعداً تحت قول الشاعر [من الطويل] :

وإن أحق الناس باللوم شاعر يلوم على البخل الرجال ويبخل

وإنما أعرب عن عادته وطريقته في قوله [من الطويل] :

بليت بلى الأطلال إن لم أقف بها وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه

فحضرت عنده يوما بحلب وقد أحضر مالا من صلات سيف الدولة ، فصب بين يديه على حصير قد افترشه ، ووزن وأعيد في كيس ، وإذا بقطعة كأصغر ما يكون من ذلك المال قد تخللت خلل الحصير ، فأكب عليها بمجامعه ينقرها ويعالج استنقاذها منه ، ويشتغل بذلك عن جلسائه حتى توصل إلى إظهار بعضها ، فتمثل ببيت قيس بن الخطيم [من الطويل] :

تبدت لنا كالشمس بين غمامة   بدا حاجب منها وضنت بحاجب

ثم استخرجها ، وأمر بإعادتها إلى إمكانها من الكيس ، وقال : إنها تحضر المائدة

وسمعته يقول : لما أنشد المتنبي عضد الدولة قصيدته فيه التي أولها [من الوافر] :

* مغانى الشعب طيباً فى المغانى *

وانتهى إلى قوله فيها

وألقى الشرق منها فى ثيابى   دنانيرا تفر من البنان

قال له عضد الدولة : لأقرنها فى يديك ، ثم فعل .

قال : ولما قدم أبو الطيب من مصر بغداد ، وترفع عن مدح المهلبى الوزير ، ذهاباً بنفسه عن مدح غير الملوك ، شق ذلك على المهلبى ، فأغرى به شعراء بغداد ، حتى نالوا من عرضه ، وتباروا فى هجائه ، وفيهم ابن الحجاج وابن سكرة [محمد بن عبد الله الزاهد] الهاشمى ، والحاتمى ، وأسمعوه ما يكره ، وتماجنوا به ، وتنادروا عليه ، فلم يجبهم ولم يفكر فيهم ، وقيل له فى ذلك ، فقال : إنى فرغت من إجابتهم بقولى لمن هم أرفع طبقة منهم فى الشعراء [من الوافر] :

أرى المتشاعرين غروا بذمى   ومن ذا يحمل الداء العضالا

ومن يك ذا فم مر مريض   يجد مراً به الماء الزلالا

وقولى [من الطويل] :

أفى كل يوم تحت ضبنى شويعر   ضعيف يقاوينى قصير يطاول[1]

لسانى بنطقى صامت عنه عادل   وقلبى بصمتى ضاحك منه هازل

(١) الضبن ـ بكسر الضاد وسكون الباء ـ ما بين الكشح والابط

وأتعب من ناداك من لا تجيبه وأغيظ من عاداك من لا تشاكل
وما التيه طبي فيهم غير أنني بغيض إلى الجاهل المتعاقل(١)

وقولي [من الكامل] :

وإذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني فاضل

قال : وبلغ أبا الحسين بن لنكك بالبصرة ما جرى على المتنبي من وقيعة شعراء بغداد فيه ، واستحقارهم له ، وكان حاسدا له ، طاعنا عليه ، هاجياً إياه ، زاعماً أن أباه كان سقاء بالكوفة فشمت به وقال [من البسيط] :

قولا لأهل زمان لا خلاق لهم ضلوا عن الرشد من جهل بهم وعموا
أعطيتم المتنبي فوق منيته فزوجوه برغم أمهاتكم
لكن بغداد جاد الغيث ساكنها نعالهم في قفا السقاء تزدحم

قال : ومن قوله فيه [من الخفيف] :

متنبيكم ابن سقاء كوفا ن ويوحى من الكنيف إليه
كان من فيه يسلح الشعر حتى سلحت فقحة الزمان عليه

ومن قوله أيضاً فيه [من المجتث] :

ما أوقح المتنبي فيما حكى وادعاه
أبيح مالا عظيما حتى أباح قفاه
ياسائلي عن غناه من ذاك كان غناه
إن كان ذاك نبياً فالجاثليق إله

ثم إن أبا الطيب المتنبي اتخذ الليل جملا ، وفارق بغداد متوجهاإلى حضرة

---

(١) طبي — بكسر الطاء — عادتي أو خلقي ، ومنه قول فروة بن مسيك :

فما إن طبنا جبن ولكن منايانا ودولة آخرينا

أبي الفضل بن العميد مراغما للمهلبي الوزير . فورد أرجان . وأحمد مورده ، فيحكي أن الصاحب أبا القاسم طمع في زيارة المتنبي إياه بأصبهان ، وإجرائه مجرى مقصوديه من رؤساء الزمان ، وهو إذ ذاك شاب وحاله حويلة ، ولم يكن استوزر بعد . وكتب إليه يلاطفه في استدعائه ، وتضمن له مشاطرته جميع ماله . فلم يقم له المتنبي وزنا . ولم يجبه عن كتابه ولا إلى مراده ، وقصد حضرة عضد الدولة بشيراز . فأسفرت سفرته عن بلوغ الأمنية ، وورود مشرع المنية . واتخذه الصاحب غرضا يرشقه بسهام الوقيعة ، ويتتبع عليه سقطاته في شعره وهفواته ، وينعى عليه سيئاته ، وهو أعرف الناس بحسناته ، وأحفظهم لها ، وأكثرهم استعمالا إياها وتمثلا بها في محاضراته ومكاتباته .
وكان مثله معه كما قال الشاعر [من الرجز] :

شتمت من يشتمني مغالطاً   لأصرف العاذل عن لجاجته
فقال : لما وقع البزاز في الـــثوب علمنا أنه من حاجته

وكما قال الآخر [من الطويل] :

وذموا لنا الدنيا وهم يرضعونها   ولم أر كالدنيا تذم وتحلب

وكما قال الآخر [من البسيط] :

نبئت أني إذا ما غبت تشتمني   قل ما بدا لك فالمحبوب مسبوب

* * *

قطعة من حل الصاحب وغيره نظم المتنبي
واستعانتهم بألفاظه ومعانيه في الترسل

فصل له من رسالة في وصف قلعة افتتحها عضد الدولة :
وأما قلعة (كذا) فقد كانت بقية الدهر المديد ، والأمد البعيد ، تعطس بأنف شامخ من المنعة ، وتنبو بعطف جامح على الخطبة . وترى أن الأيام

قد صالحتها على الإعفاء من القوارع ، وعاهدتها على التسليم من الحوادث . فلما أتاح الله للدنيا ابن بجدتها ، وأبا بأسها ونجدتها ، جهلوا بون ما بين البحور والأنهار ، وظنوا الأقدار تأتيهم على مقدار . فما لبثوا أن رأوا معقلهم الحصين ومثواهم القديم ، نهزة الحوادث ، وفرصة البوائق . ومجر العوالى ، ومجرى السوابق .

وإنما ألم بألفاظ بيتين لأبي الطيب أحدهما [من الكامل] :

حتى أتى الدنيا ابن بجدتها فشكا إليه السهل والجبل

والآخر [من الطويل] :

تذكرت ما بين العذيب وبارق مجر عوالينا ومجرى السوابق

وفصل له — لئن كان الفتح جليل الخطر ، عظيم الأثر ، فإن سعادة مولانا لتبشر بشوافع له ، يعلم معها أن لله أسراراً فى علاه لا يزال يبديها ، ويصل أوائلها بتواليها .

وهو من قول أبى الطيب [من الطويل] :

ولله سر فى علاك ، وإنما كلام العدى ضرب من الهذيان

فصل — ولو كان ما أحسنه شظية فى قلم كاتب لما غيرت خطه ، أو قذى فى عين نائم لما انتبه جفنه .

وهو من قول أبى الطيب [من الطويل] :

ولو قلم ألقيت فى شق رأسه من السقم ما غيرت من خط كاتب

وقول نصر [من السريع] :

ضنيت حتى صرت لو زج بى فى ناظر النائم لم ينتبه

ومنه أخذ ابن العميد قوله [من الكامل] :

فلو ان ما أبقيت فى جسدى قذى فى العين لم يمنع من الإغفاء

فصل للصاحب فى التعزية — إذا كان الشيخ القدوة فى العلم وما يقتضيه ،

والأسوة فى الدين وما يجب فيه . لزم أن يتأدب فى حالات الصبر والشكر بأدبه ، ويؤخذ فى ثارات الأسى والأسى بمذهبه . فكيف لنا بتعزيته عند حادث رزيته ، إلا إذا روينا له بعض ما أخذناه عنه ، وأعدنا إليه طائفة مما استفدناه منه .

وإنما هو حل من قول أبي الطيب [من الخفيف] :

أنت يا فوق أن يعزى عن الأحـ ـباب فوق الذى يعزيك عقلا

وبألفاظك اهتدى فإذا عزا ك قال الذى له قلت قبلا

وفصل له ـــ وقد أثنى عليه ثناء لسان الزهر ، على راحة المطر

وهو من قول أبي الطيب [من الكامل] :

وذكى رائحة الرياض كلامها تبغى الثناء على الحيا فيفوح (١)

والأصل فيه قول ابن الرومى [من الخفيف] :

شكرت نعمة الولى على الوسمـــى ثم العهاد بعـــد العهاد(٢)

فهى تثنى على السماء ثناء طيب النشر شائعا فى البلاد

من نسيم كأن مسراه فى الأر واح مسرى الأرواح فى الأجساد

ومما أورده من أبيات أبي الطيب كما هى قوله فى كتاب أجاب به ابن العميد عن كتابه الصادر إليه عن شاطىء البحر فى وصف مراكبه وعجائبه :

---

(١) الحيا : المطر . شبه رائحة أزهار الرياض بالكلام ، ثم بين أن الرياض أرادت أن تتحدث عن صنائع المطر فأرسلت عبير أزهارها تحدث عنه .

(٢) الضمير المستتر فى « شكرت » يعود إلى الرياض ، والولى ـ بفتح الواو وكسر اللام وتشديد الياء ـ المطر بعد مطر ، والوسمى ـ بفتح فسكون ـ مطر الربيع . والعهاد ـ بكسر العين ، بزنة الكتاب ـ أول المطر

وقد علمت أن سيدنا كتب وما أخطر بفكره ، سعة صدره . ولو فعل ذلك لرأى البحر وشلا لايفضل عن التبرض(١) ، وثمداً لايكثر عن الترشف(٢) [من الطويل] :

وكم من جبال جبت تشهد أنني الـ جبال وبحر شاهد أنني البحر(٣)

وله من رسالة فى التهنئة ببنت أولها — أهلا بعقيلة النساء ، وكريمة الآباء ، وأم الأبناء ، وجالبة الأصهار ، والأولاد الأطهار . ثم يقول فيها [من الوافر] :

ولو كان النساء كمثل هذى لفضلت النساء على الرجال
وما التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخر للهلال

وهما لأبى الطيب من قصيدة فى مرثية والدة سيف الدولة إلا أنه يقول :

ولو كان النساء كمن فقدنا

وللصاحب من كتاب تعزية — وقلنا : قد أخذ الزمان من أخذ ، وترك من ترك ، فهو لا شك يعفو عن القمر ، وقد أسلم الشمس للطفل(٤) ولا يصل الصروف بالصروف ، ولا يجمع الكسوف إلى الخسوف ، فأبى حكم الملوين ، وقد غبنك إذ قاسمك الأخوين ، إلا أن يعود فيلحق الباقى بالفانى ، والغابر

(١) الوشل — بفتح الواو والشين — القليل من الماء ، والتبرض : الاكتفاء والتبلغ بالقليل ، ولا يفضل عنه : لا يزيد على قدره

(٢) الثمد — بفتحتين — الماء القليل ، والترشف : أخذ الماء جرعة بعد جرعة ومعنى هذه الفاصلة كمعنى سابقتها

(٣) جبت : قطعت ، جاب الأرض يجوبها : قطعها

(٤) الطفل — بفتح الطاء والفاء جميعا — الوقت عند غروب الشمس ، وأراد هنا غروبها

بالماضى [من البسيط] :

وعاد فى طلب المتروك تاركه إنا لنغفل والأيام فى الطلب
ما كان أقصر وقتاً كان بينهما كأنه الوقت بين الورد والقرب

أقول : هذا كعادة المصدور فى النفث ، وشكوى الحزن والبث ، وإلا فما يعجب السفر من تقدم بعض ، وكل بين الراحلة والرحل ، لا يترك الموت ساعيا على وجه الأرض ، حتى ينقله إلى بطن الترب [من السريع] :

نحن بنو الموتى فما بالنا نعاف ما لا بد من شربه
تبخل أيدينا بأرواحنا على زمان هن من كسبه
فهذه الأرواح من جوه وهذه الأجسام من تربه

وهذا غيض من فيض ما اغترفه الصاحب من بحر المتنبى . وتمثل به من شعره . ولو ذكرت نظائره لامتد نفس هذا الباب .

وليس هو بأوحد فى الاقتباس من كلامه ، هذا أبو إسحاق الصابى رسيله فى ذلك وزميله ، وقد قرأت له غير فصل فيما أشرت إليه ، ونبهت عليه : فمنه ما كتب فى تقريظ — شاب مقتبل الشبيبة ، مكتهل الفضيلة ، ولقد آتاه الله فى اقتبال العمر جوامع الفضل ، وسوغه فى عنفوان الشباب محامد الاستكمال . فلا تجد الكهولة خلة تتلافاها بتطاول المدة ، وثلمة تسدها بمزايا الحنكة .

وإنما هو حل نظم أبى الطيب ، وإن كان فى معنى آخر [من المنسرح] :

لا تجد الخمر فى مكارمه إذا انتشى خلة تلافاها

وأخذ من قول البحترى [من الطويل] :

تكرمت من قبل الكؤوس عليهم فما اسطعن أن يحدثن فيك تكرما

ومنه ما كتب إلى ابن معروف تهنئة بقضاء القضاة — منزلة قاضى القضاة

تجل عن التهنئة ، لأن ماتكتسبه الولاة بها من الصيت والذكر ، ويدعونه فيها من الجمال والفخر ، سابق لها عنده ، وحاصل قبلها له ، وإذا مد أحدهم إليها يدا تجذبها إلى سفال ، جذبتها يده إلى المحل العالى ، فكأن أبا الطيب المتنبي عناه أو حكاه بقوله [من الكامل] :

فوق السماء وفوق ما طلبوا ... فإذا أرادوا غاية نزلوا

ومنه ما كتب ـ وعاد مولانا إلى مستقر عزه عود الحلى إلى العاطل . والغيث إلى الروض الماحل .

وإنما هو من قول أبي الطيب [من المتقارب] :

وعدت إلى حلب ظافرا ... كعود الحلى إلى العاطل

وإذا كان هذان الصدران المقدمان على بلغاء الزمان يقتبسان من أبي الطيب في رسائلهما ، فما الظن بغيرهما ؟ وما أحسن قول الشاعر [من الطويل] :

ألا إن حل الشعر زينة كاتب ... ولكن منهم من يحل فيعقد

وممن يحذو حذوهما الأستاذ أبوالعباس أحمد بن إبراهيم الضبي ، وما أظرف ما قرأت له في كتابه إلى أبي سعيد الشبيبي :

وقد أتاني كتاب شيخ الدولتين فكان في الحسن ، روضة حزن (١) بل جنة عدن . وفي شرح النفس ، وبسط الأنس ، برد الأكباد والقلوب ، وقميص يوسف في أجفان يعقوب .

وهو من بيت أبي الطيب [من البسيط] :

كأن كل سؤال في مسامعه ... قميص يوسف في أجفان يعقوب

وفصل لأبي بكر الخوارزمي ـ وكيف أمدح الأمير بخلق ضن به الهواء .

---

(١) حزن ـ بفتح فسكون ـ هو ههنا : موضع في ديار بني يربوع يشتمل على قيعان ورياض ومنازه .

وامتلأت من ذكره الأرض والسماء ، وأبصره الأعمى بلا عين ، وسمه الأصم بلا أذن .

وهو حل نظم أبي الطيب [من المنسرح] :

تنشد أثوابنا مدائحه بألسن ما لهن أفواه

إذا مررنا على الأصم بها أغنته عن مسمعيه عيناه

ولأبي بكر من رسالة ـ ولقد تساوت الألسن حتى حسد الأبكم ، وأفسد الشعر حتى أحمد الصمم .

وهو قول أبي الطيب [من البسيط] :

ولا تبال بشعر بعد شاعره قد أفسد القول حتى أحمد الصمم

وهذا ميدان عريض ، وشوط بطين ، وفيما ذكرته كفاية .

* * *

ولاستراقات الشعراء من أبي الطيب باب هذا مكانه .

* * *

أنموذج لسرقات الشعراء منه

١ ـ قال المتنبي [من الوافر] :

وقد أخذ التمام البدر فيهم وأعطاني من السقم المحاقا

أخذه أبو الفرج الببغاء فلطفه وقال [من الكامل] :

أوليس من إحدى العجائب أنني فارقته وحييت بعد فراقه

يامن يحاكي البدر عند تمامه ارحم فتى يحكيه عند محاقه

٢ ـ وقال أبو الطيب [من البسيط] :

قد علم البين منا البين أجفانا تدمى ، وألف في ذا القلب أحزانا

أخذه المهلبي الوزير وقال [من الطويل] :

تصارمت الأجفان منذ صرمتني فما تلتقي إلا على عبرة تجري

٣ — وقال أبو الطيب وهو من قلائده [من الطويل] :

وكنت إذا يممت أرضاً بعيدة سريت فكنت السر والليل كاتمه

أخذه الصاحب وقال [من الطويل] :

تجشمتها والليل وحف جناحه كأنى سر والظلام ضمير

٤ — وقال أبو الطيب ، وهو أيضاً من قلائده [من الوافر] :

لبسن الوشى لا متجملات ولكن كى يصن به الجمالا

أغار عليه الصاحب لفظاً ومعنى فقال [من الطويل] :

لبسن برود الوشى لا لتجمل ولكن لصون الحسن بين برود

وإنما فعل ببيتيه ما فعل أبو الطيب ببيت العباس بن الأحنف [من الكامل] :

والنجم فى كبد السماء كأنه أعمى تحير مالديه قائد

فقال [من المنسرح] :

ما بال هذى النجوم حائرة كأنها العمى ما لها قائد

وهذه مصالتة لا سرقة (١) ، وهى مذمومة جدا عند النقدة .

٥ — وقال أبو الطيب ، وهو من فرائده [من الطويل] :

سقاك وحيانا بك الله . إنما على العيس نور والخدور كمائمه

أخذه السرى بن أحمد ، قال ابن جنى : أنشدنى لنفسه من قصيدة يمدح بها أبا الفوارس سلامة بن فهد ، وهى قوله [من المنسرح] :

حيا به الله عاشقيه فقد أصبح ريحانة لمن عشقا

ولم أجد أنا هذه القصيدة فى ديوان شعره ، والبيت نهاية فى العذوبة وخفة الروح .

٦ — والسرى كثير الأخذ من أبى الطيب فى مثل قوله [من الوافر] :

---

(١) المصالتة : أن يأخذ الشاعر معنى بيت من أبيات شاعر آخر ، ولا يكتفى بهذا حتى يضم إليه ألفاظ البيت المأخوذ أو بعضها كما رأيت .

وخرق طال فيـــه السير حتى حسبناه يسير مـــع الركاب

وهو مأخوذ من قول أبي الطيب [من الطويل] :

يخـــدن بنـا في جوزه وكأننا على كرة أو أرضه معنا سفر

٧ ـــ وقال السري [من الكامل] :

وأحلها من قلب عاشقها الهوى بيتا بلا عمـــد ولا أطناب

وهو من قول أبي الطيب [من البسيط] :

هام الفؤاد بأعرابية سكنت بيتا من القلب لم تضرب به طنبا

٨ ـــ وقال السري [من الكامل] :

وأنا الفـــداء لمن مخيلة برقه عندي وعند سواي من أنوائه

وإنما ألم فيه بقول أبي الطيب [من البسيط] :

ليت الغمام الذي عندي صواعقه يزيلهن إلى من عنـــده الديم

٩ ـــ وقال أبو الطيب ، وهو من قلائده [من الوافر] :

فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال

وقال أيضاً [من الوافر] :

وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام[١]

أخذ أبو بكر الخوارزمي معنى البيتين ، وهما قريب من قريب ، فقال [من الوافر] :

فديتك ما بدالي قصـــد حر سواك من الورى إلا بدالي

وأنك منهم وكذاك أيضـــاً من المـــاء الفرائد واللآلي

وتسكن دارهم وكذاك سكنى الـ حجارة والزمرد في الجبـــال

وهذا معنى قد اخترعه المتنبي ، وكرره في تفضيل البعض على الكل ، فأحسن غاية الإحسان حيث قال [من الطويل] :

---

(١) الرغام : التراب

فإن يك سيار بن مكرم انقضى   فإنك ماء الورد إن ذهب الورد

١٠ — وقال [من البسيط] :

وإن تكن تغلب الغلباء عنصرها   فإن في الخمر معنى ليس في العنب

ألم به أبو الفتح على بن محمد البستى الكاتب فقال [من الطويل] :

أبوك حوى العليا وأنت مبرز   عليه إذا نازعته قصب المجد

وللخمر معنى ليس في الكرم مثله   وفي النار نور ليس يوجد في الزند

وخير من القول المقدم فاعترف   نتيجته والنحل يكرم للشهد

وقال أيضاً [من الطويل] :

أبوك كريم غير أنك سابق   مداه بلا ضيم عليه ولا ذيم[1]

فلا يعجبن الناس مما أقوله   وأقضى به فالغيث أندى من الغيم

١١ — وقال أبو الطيب [من الوافر] :

وصرت أشك فيمن أصطفيه   لعلمي أنه بعض الأنام

أخذه أبو بكر الخوارزمى فقال [من الرمل] :

قد ظلمناك بحسن الـ   ـظن يا بعض الأنام

١٢ — وقال أبو الطيب [من البسيط] :

أتى الزمان بنوه في شبيبته   فسرهم وأتيناه على الهرم

أخذه أبو الفتح وحسنه فقال [من البسيط] :

لا غرو إن لم تجد في الدهر مخترفا   فقد أتيناه بعد الشيب والخرف

١٣ — وقال أبو الطيب [من الطويل] :

هما الغرض الأقصى، ورؤيتك المنى   ومنزلك الدنيا . وأنت الخلائق

امتثله أبو الحسن السلامى فقال [من الطويل] :

(١) الذيم ، والذام : العيب .

ويشرت آمالي بملك هو الورى ودار هي الدنيا ، ويوم هو الدهر

١٤ — وقال أبو الطيب [من الخفيف] :

لم تزل تسمع المديح ولكن صهيل الجيـــاد غير النهاق

أخذه أبو القاسم الزعفراني ولطفه جداً فقال [من الخفيف] :

وتغنيك في النـــداء طيور أنا وحـــدى ما بينهن الهزار

* *

وإذ قد ذكرت أنموذجا من سرقات الشعراء منه ، فلا بأس أن أذكر سرقاته من الشعراء ، سوى ما أورده القاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز في كتاب « الوساطة » فشفى وكفى وبالغ فأوفى ، وسوى ما مر ويمر منها في أماكنها من فصول هذا الكتاب .

صـــــدر من سرقاته (١)

١ — قال مخلد الموصلي [من مخلع البسيط] :

يا منزلا ضن بالســلام سقيت ريا من الغمام

ما ترك الدهر منك إلا ما ترك الشوق من عظامي

أخذه أبو الطيب فجوده حيث قال [من البسيط] :

ما زال كل هزيم الودق ينحلها والشوق ينحلني حتى حكت جسدي

٢ — وقال عمرو بن كلثوم [من الوافر] :

فآبوا بالنهاب وبالسبايا وأبنا بالملوك مصفـــدينا

أخذه أبو تمام فأحسن إذ قال [من البسيط] :

إن الأسود أسود الغاب همتها يوم الكريهة في المسلوب لا السلب

(١) أخذ الشيخ يوسف البديعي صاحب « الصبح المنبي » هذه الفصول بحروفها

وأخذه أبو الطيب فلم يحسن فى تكرير لفظ النهب وذكر القماش إذ هو من ألفاظ العامة [من الوافر] :

ونهب نفوس أهل النهب أولى   بأهل المجد من نهب القماش

٣ — وقال بشار بن برد [من الطويل] :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا   وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

أخذه أبو الطيب وذكر الرماح مكان الأسياف فقال [من الكامل] :

وكأنما كسى النهار بها دجى   ليل ، وأطلعت الرماح كواكبا

٤ — وقال مسلم بن الوليد [من الطويل] :

أرادوا ليخفوا قبره من عدوه   فطيب تراب القبر دل على القبر

ألم به أبو الطيب فقال [من الوافر] :

وما ريح الرياض لها ولكن   كساها دفنهم فى الترب طيبا

٥ — وقال الفرزدق [من البسيط] :

وكنت فيهم كممطور ببلدته   يسر أن جمع الأوطان والمطر

أخذه أبو الطيب فقال [من الطويل] :

وليس الذى يتبع الوبل رائداً   كمن جاءه فى داره رائد الوبل

٦ — وفى قوله فى هذه القصيدة [من الطويل] :

وخيل إذا مرت بوحش وروضة   أبت رعيها إلا ومرجلنا يغلى

رائحة من قول امرئ القيس [من الطويل] :

إذا ما ركبنا قال ولدان أهلنا :   تعالوا إلى أن يأتى الصيد نحطب

٧ — وقال أبو نواس ، ويقال : إنه أمدح بيت للمحدثين [من البسيط]

وكلت بالدهر عيناً غير غافلة   بجود كفيك تأسو كل ما جرحا

أخذه أبو الطيب وزاد فيه حسن التشبيه فقال [من الطويل] :

تتبع آثار الرزايا بجوده تتبع آثار الأسنة بالقتل

٨ — وقال أبو نواس ، وهو من قلائده في وصف الخمر [من الطويل] :

إذا ما أتت دون اللهاة من الفتى دعا همه من صدره برحيل

أخذه أبو الطيب ونقله إلى معنى آخر فقال [من الطويل] :

وما هي إلا لحظة بعد لحظة إذا نزلت في قلبه رحل العقل

٩ — وقال ابن أبي عيينة . ويروى للخليل [من البسيط] :

زر وادي القصر ، نعم القصر والوادي في منزل حاضر ، إن شئت ، أو بادي
ترقى به السفن والظلمان حاضرة والضب والنون والملاح والحادي(١)

وهذا أحسن ما قيل في وصف مكان يجمع بين أوصاف البر والبحر والحاضرة والبادية ، ألم به أبو الطيب في وصف متصيد عضد الدولة بناحية سهلية جبلية تجمع الأضداد [من الرجز] :

سقيا لدشت الأرزن الطوال بين المروج الفيح والأغيال(٢)
مجاور الخنزير والرئبال داني الخنانيص من الأشبال(٣)
مستشرف الدب على الغزال مجتمع الأضداد والأشكال

١٠ — وقال بعض العرب ، وهو من الأمثال السائرة [من الطويل] :

إذا بل من داء به ظن أنه نجا . وبه الداء الذي هو قاتله(٤)

---

(١) الظلمان : جمع ظليم وهو ذكر النعام ، والنون : الحوت ، والحادي : من يسوق الابل ويزجرها . وفي الصبح «تلقي به السفن والغلمان» وهو أفضل

(٢) الدشت : الصحراء ، وهي لفظة فارسية ، والأرزن : الشجر ، والفسيح : الواسعة ومفردها فيحاء ، والغيل : أجمة الأسد

(٣) الخنانيص : أولاد الخنزير

(٤) الأبلال : النجاة من المرض

أخذه أبو الطيب فقال وأحسن [من الوافر] :

وإن أسلم فما أبقى ولكن سلمت من الحمام إلى الحمام

١١ — وقال بعض الرجاز [من الرجز] :

هل يغلبني واحد أقاتله ريم على لباته سلاسله[١]

« سلاحه يوم الوغى مكاحله »

أخذه أبو الطيب فأكمل الوصف وأظهر الغرض حيث قال [من الكامل] :

من طاعني ثغر الرجال جآذر ومن الرماح دمالج وخلاخل

ولذا اسم أغطية العيون جفونها من أنها عمل السيوف عوامل

١٢ — وقال أبو تمام [من الكامل] :

غربت خلائقه وأغرب شاعر فيه فأبدع مغرب في مغرب

أخذه أبو الطيب فقال [من الخفيف] :

شاعر المجد خدنه شاعر اللفـ ـظ كلانا رب المعاني الدقاق

١٣ — وقال أبو تمام [من الطويل] :

يمدون بالبيض القواطع أيديا فهن سواء والسيوف قواطع

أخذه أبو الطيب فأوقع التشبيه على الجملة حيث قال [من الطويل] :

همام إذ ما فارق الغمد سيفه وعاينته لم تدر أيهما النصل

١٤ — وقال ابن الرومي [من السريع] :

لا قدست نعمى تسربلتها كم حجة فيها لزنديق

أخذه أبو الطيب فقال [من البسيط] :

---

(١) الريم : الظبي الخالص البياض . واللبة : موضع القلادة

فإنه حجة يؤذى القلوب بها … من دينه الدهر والتعطيل والقدم

١٥ — ولابن الرومى وأجاد [من الطويل] :

وأحسن من عقد العقيلة جيدها … وأحسن من سربالها المتجرد

أخذه أبو الطيب فقال [من الرجز] :

ورب قبح وحلى ثقال … أحسن منها الحسن فى المعطال

١٦ — وقال عبيد الله بن طاهر [من الطويل] :

وجربت حتى لا أرى الدهر مغربا … على بشىء لم يكن فى تجاربى

أخذه أبو الطيب فقال [من الخفيف] :

قد بلوت الخطوب حلواً ومراً … وسلكت الأيام حزنا وسهلا

وقتلت الزمان علما فما يغـ … ـرب قولا ولا يجدد فعلا

وكرر هذا المعنى فقال [من الطويل] :

عرفت الليالى قبل ما صنعت بنا … فلما دهتنا لم تزدنى بها علما

١٧ — وكتب ابن المعتز إلى عبيد الله بن سليمان يعزيه عن ابنه أبى محمد ويسليه ببقاء أبى الحسين القاسم أبياتا منها [من الكامل] :

ولقد غبنت الدهر إذ شاطرته … بأبى الحسين وقد ربحت عليه

وأبو محمـد الجليل مصابه … لكن يمنى المرء خير يديه

فأخذ أبو الطيب هذا المعنى ، وقال لسيف الدولة من قصيدة يعزيه بها عن أخته الصغرى ، ويسليه ببقاء الكبرى حيث قال [من الخفيف] :

قاسمتك المنون شخصين جورا … جعل القسم نفسه فيك عدلا

فإذا قست ما أخذن بما غا … درن سرى عن الفؤاد وسلى

وتيقنت أن حظك أوفى … وتبينت أن جدك أعلى

١٨ — وكان أبو الطيب كثير الأخذ من ابن المعتز ، على تركه الإقرار بالنظر

فى شعر المحدثين : فمما أخذه منه قوله [من البسيط] :

وتكسب الشمس منك النور طالعة كما تكسب منها نورها القمر

وهو معنى قول ابن المعتز [من السريع] :

البدر من شمس الضحى نوره والشمس من نورك تستملى

١٩ — وأخذ قوله ، وهو من قلائده ، ولعله أمير شعره [من البسيط] :

أزورهم وسواد الليل يشفع لى وأنثنى وبياض الصبح يغرى بى

من مصراع لابن المعتز ، ذكر ابن جنى قال : حدثنى المتنبى ـ وقت القراءة عليه ـ [قال] : قال لى ابن حنزابة وزير كافور : أحضرت كتبي كلها وجماعة من الأدباء يطلبون لى من أين أخذت هذا المعنى . فلم يظفروا بذلك ! وكان أكثر من رأيت كتبا .

قال ابن جنى : ثم إنى عثرت بالموضع الذى أخذه منه ، إذ وجدت لابن المعتز مصراعا بلفظ لين صغير جدا فيه معنى بيت المتنبي كله على جلالة لفظه وحسن تقسيمه . وهو قوله [من البسيط] :

* فالشمس نمامة والليل قواد *[1]

ولن يخلو المتنبى من إحدى ثلاث : إما أن يكون ألم بهذا المصراع فحسنه وزينه ، وصار أولى به ، وإما أن يكون قد عثر بالموضع الذى عثر به ابن المعتز فأربى عليه فى جودة الأخذ ، وإما أن يكون قد اخترع المعنى وابتدعه وتفرد به ، فلله دره ! وناهيك بشرف لفظه ، وبراعة نسجه ! .

وما أحسن ما جمع فيه أربع مطابقات فى بيت واحد . وما أراه سبق إلى مثلها . ومازال الناس يعجبون من جمع البحترى ثلاث مطابقات فى قوله [من البسيط] :

وأمة كان قبح الجور يسخطها دهراً فأصبح حسن العدل يرضيها

---

(١) صدره : * لاتلق إلا بليل من تواصله * وبعده :

كم عاشق وظلام الليل يستره لاقى أحبته والناس رقاد

حتى جاء أبو الطيب فزاد عليه مع عذوبة اللفظ ورشاقة الصنعة .

ولبعض أهل العصر بيت يجمع خمس مطابقات . ولكنه لا يستقل إلا بإنشاد بيتين قبله ، وهي [من الطويل] :

عذيرى من الأيام مدت صروفها إلى وجه من أهوى يد النسخ والمحو

وأبدت بوجهي طالعات أرى بها سهام أبي يحيى مسددة نحوى

فذاك سواد الحظ ينهى عن الهوى وهذا بياض الوخط يأمر بالصحو

٢٠ — وقال ابن الرومي [من الطويل] :

أرى فضل مال المرء داء لعرضه كما أن فضل الزاد داء لجسمه

فليس لداء العرض شيء كبذله وليس لداء الجسم شيء كحسمه

ألم به أبو الطيب فقال [من الخفيف] :

يتداوى من كثرة المال بالإقـ ـلال جودا كأن مالا سقام

* * *

بعض ما تكرر في شعره من معانيه

١ — قال [في سيف الدولة (١)] [من الوافر] :

وأنت المرء تمرضه الحشايا لهمته . وتشفيه الحروب

وقال [يذكر الحمى التي كانت تغشاه بمصر] [من الوافر] :

وما في طبـــه أني جواد أضر بجسمه طول الجمام

٢ — وقال [يمدح بدر بن عمار] [من الكامل] :

ليت الحبيب الهاجري هجر الكرى من غير جرم واصلى صلة الضنا

وقال [يمدح طاهر بن الحسين] [من الطويل] :

---

(١) ما بين الحاصرتين في كل المثل ساقط من ب ، وقد آثرنا بقاءه ، لأن فيه دلالة ما على موضوع الكلمة التي منها المثال .

فياليت ما بيني وبين أحبتي من البعد ما بيني وبين المصائب

٣ — وقال [يمدح المغيث بن بشر العجلى] [من البسيط] :

إذا بدا حجبت عينيك هيبته وليس يحجبه ستر إذا احتجبا

وقال [وقد حجبه بدر عمار] [من الكامل] :

أصبحت تأمر بالحجاب لخلوة هيهات لست على الحجاب بقادر

من كان ضوء جبينه ونواله لم يحجبا لم يحتجب عن ناظر

فإذا احتجبت فأنت غير محجب وإذا بطنت فأنت عين الظاهر

٤ — وقال [من قصيدة يمدحه بها] [من المتقارب] :

أمير أمير عليـــه الندى جواد بخيل بأن لا يجودا

وقال [من الوافر] :

ألا إن الندى أضحى أميرا على مال الأمير أبي الحسين

٥ — وقال [يمدح بدر بن عمار] [من المتقارب] :

ومال وهبت بلا موعد وقرن سبقت إليه الوعيدا

وقال [من القصيدة التي كتبها إلى السلطان من حبسه] [من المتقارب] :

لقد حال بالسيف دون الوعيد وحالت عطاياه دون الوعود

٦ — وقال [من قصيدة يمدح بها كافورا] [من الطويل] :

وما رغبتي في عسجد أستفيده ولكنها في مفخر أستجـــده

وقال [من قصيدة يمدح بها أبا العشائر] [من الوافر] :

فسرت إليك في طلب المعالي وسار سواي في طلب المعاش

٧ — وقال [يمدح سعيد بن عبد الله] [من البسيط] :

قد علم البين منا البين أجفانا تدمى وألف في ذا القلب أحزانا

وقال [في خلاص أبي وائل] [من المتقارب] :

كأن الجفون على مقلتى ثياب شققن على ثاكل

٨ — وقال [يمدح بدر بن عمار] [من المتقارب] :

كأنك بالفقر تبغي الغنى وبالموت فى الحرب تبغى الخلودا

وقال [فى الحسين بن إسحاق التنوخى] [من الطويل] :

كأنك فى الإعطاء للمال مبغض وفى كل حرب للمنيـــة عاشق

٩ — وقال [من الخفيف] :

الذى زلت عنه شرقا وغربا ونداه مقابلى ما يزول

وقال [فى سيف الدولة] [من الطويل] :

ومن فر من إحسانه حسداً له تلقاه منه حيث ماسـار نائل

١٠ — وقال [يمدح أبا أيوب أحمد بن عمران] [من الكامل] :

فـكأنمـا نتجت قياما تحتهم وكأنما ولدوا على صهواتها

وقال [فى الحسن بن عبيد الله بن طغج] [من الطويل] :

وطعن غطاريف كأن أكفهم عرفن الردينيات قبل المعاصم

١١ — وقال [يشكو الحمى بمصر] [من الوافر] :

جرحت مجرحا لم يبق منه مكان للسيوف وللسهـام

وقال [فى مرثية والدة سيف الدولة] [من الوافر] :

رمانى الدهر بالأرزاء حتى فؤادى فى غشاء من نبال

فصرت إذا أصـابتنى سهام تـكسرت النصال على النصال

١٢ — وقال [يمدح أبا على هارون بن عبد الله الكاتب] [من الكامل]

وشكيتى فقد السهـام لأنه قد كان لمـا كان لى أعضاء

وقال [قبيل مسيره من مصر يهجو كافوراً] [من البسيط] :

لم يترك الدهر من قلبى ومن كبدى شيئاً تتيمه عين ولا جيـــد

١٣ — وقال [يصف مدينة مرعش] [من الطويل] :

تصد الرياح الهوج عنهـا مخافة وتفزع فيها الطير أن تلقط الحبا

وقال [من قصيدة فى مدح كافور] [من البسيط] :

إذا أتتها الرياح النكب فى بلد فما تهب بها إلا بترتيب

١٤ — وقال [يمدح الحسن بن عبيد الله بن طغج] [من الطويل] :

إذا ضوؤها لاقى من الطير فرجة تدور فوق البيض مثل الدراهم

وقال [من كلمة يمدح فيها عضد الدولة] [من الوافر] :

وألقى الشرق منها فى ثيابى دنانيراً تفر من البنان

وقال(١) [يمدح أبا شجاع محمد بن أوس] [من الكامل] :

ولقد بكيت على الشباب ولمتى مسودة ، ولماء وجهى رونق

حذراً عليه قبل يوم فراقه حتى لكدت بماء جفنى أشرق

١٥ — وقال [وقد أهداه عبدالله بن خراسان هدية] [من المنسرح] :

هدية ما رأيت مهديها إلا رأيت العباد فى رجل

وقال [يمدح بدر بن عمار] [من المتقارب] :

أحلما نرى أم زمانا جديدا أم الخلق فى شخص حى أعيدا

ومثله [فى الحسين بن إسحاق التنوخى] [من الطويل]

[هى الغرض الأقصى، ورؤيتك المنى] ومنزلك الدنيا، وأنت الخلائق

ثم كرره وزاد فيه فقال [من كلمة يمدح فيها ابن العميد] [من الكامل] :

ولقيت كل الفاضلين كأنما رد الإله نفوسهم والأعصرا

نسقوا لنا نسق الحساب مقدما وأتى فذلك إذ أتيت مؤخرا

والأصل فيه قول أبى نواس [من السريع] :

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

وقال [من البسيط] :

متى تخطى إليه الرجل سالمة تستجمع الخلق فى تمثال إنسان

(١) لا يظهر لى وجه اتفاق هذين البيتين مع ما قبلهما ولا ما بعدهما . ولا بد أنه سقط من الأصول ما يوافقهما ، وكذلك سقط من الصبح المنبى ١٧٦

١٦ — وقال [فى سيف الدولة] [من البسيط] :

هو الشجاع يعد البخل من جبن   وهو الجواد يعد الجبن من بخل

وقال [وقد ضرب أبو العساكر خيمة على الطريق فكثر سؤاله وغاشيته]

[من المنسرح] :

فقلت إن الفتى شجاعته   تريه فى الشح صورة الفرق

والأصل فيه قول أبى تمام [من الكامل] :

أيقنت أن من السماح شجاعة   تدمى ، وأن من الشجاعة جودا

١٧ — وقال [يمدح أبا شجاع عضد الدولة] [من الوافر] :

ومن أعتاض منك إذا افترقنا ؟   وكل الناس زور ما خلاكا

وقال فى مثله فتبرد وبالغ [من الخفيف] :

إنما الناس أنت ، وما النا   س بناس فى موضع منك خال

١٨ — وقال [فى سيف الدولة] [من الطويل] :

إذا اعتل سيف الدولة اعتلت الأرض   ومن فوقها والبأس والكرم والمحض

وقال [فيه أيضا] [من البسيط] :

وما أخصك فى برء بتهنئة   إذا سلمت فكل الناس قد سلموا

١٩ — وقال [يمدح كافوراً ولم يلقه بعد] [من الطويل] :

تجاوز قدر المدح حتى كأنه   بأحسن ما يثنى ما عليه يعاب

وقال [فى عبد الله بن يحيى البحترى] [من البسيط] :

وعظم قدرك فى الآفاق أوهمنى   أنى بقلة ما أثنيت أهجوكا

وقال [يعزى عضد الدولة وقد ماتت عمته] [من السريع] :

وكان من عدد إحسانه   كأنه أسرف فى سبه

والأصل فى هذا قول البحترى [من الخفيف] :

جل عن مذهب المديح فقد كا د يكون المديح فيه هجاء

٢٠ — وقال [وهو مما سبق إليه] [من مخلع البسيط] :

نال الذى نلت منه منى لله ما تصنع الخمور

وقال [من الطويل] :

أفيكم فتى حى فيخبر ناعباً بما شربت مشروبة الراح من ذهنى

٢١ — وقال [يمدح سيف الدولة] [من الطويل] :

عليم بأسرار الديانات واللغى له خطرات تفضح الناس والكتبا

وقال [فى أبى العشائر على بن الحسين] [من الوافر] :

كأنك ناظر فى كل قلب فما يخفى عليك محل غاش

وقال [من البسيط] :

ووكل الظن بالأسرار فانكشفت له سرائر أهل السهل والجبل

٢٢ — وقال [لبدر بن عمار يمدحه] [من الكامل] :

فاغفر فدى لك واحبنى من بعدها لتخصنى بعطية منها أنا

وقال [من المنسرح] :

له أياد إلى سالفة أعد منها ولا أعددها

٢٣ — وقال وهو من قلائده [من الخفيف] :

خير أعضائنا الرؤس ولكن فضلتها بقصدك الأقدام

وقال [من المتقارب] :

وإن القيام الألى حوله لتحسد أرجلها الأرؤس

٢٤ — وقال [من قصيدة فى مدح سيف الدولة] [من الطويل] :

وما الحسن فى وجه الفتى شرف له إذا لم يكن فى فعله والخلائق

وقال فى وصف الخيل [من الطويل] :

إذا لم تشاهد غير حسن شياتها وأعضائها فالحسن عنك مغيب

وقريب منه قوله [من الوافر] :

يحب العاقلون على التصافي وحب الجاهلين على الوسام

٢٥ — وقال في معنى قد تصرفت فيه الشعراء [من الخفيف] :

ذل من يغبط الذليل بعيش رب عيش أخف منه الحمام

وقال [في صباه] [من الخفيف] :

عش عزيزاً أو مت وأنت كريم بين طعن القنا وخفق البنود

٢٦ — وقال [لعلي بن إبراهيم التنوخي يمدحه] [من الوافر] :

إذا ما لم تسر جيشاً إليهم أسرت إلى قلوبهم الهلوعا

وقال [من الخفيف] :

بعثوا الرعب في قلوب الأعادي فكأن القتال قبل التلاقي

وقال [من البسيط] :

قد ناب عنك شديد الخوف واصطنعت لك المهابة ما لا يصنع البهم

وقال [من الخفيف] :

أبصروا الطعن في القلوب دراكا قبل أن يبصروا الرماح خيالا

وقال [من الطويل] :

صيام بأبواب القباب جيادهم وأشخاصهم في قلب خائفهم تعدو

وقال [من البسيط] :

تغير عنه على الغارات هيبته وماله بأقاصي البر أهمال

والأصل فيه قول النبي صلى الله عليه وسلم « نصرت بالرعب » ثم أكثر الناس منه ، ومن أوجز ماقالوا قول علي بن جبلة العكوك [من الهزج] :

غدا مجتمع العزم له جند من الرعب

٢٧ ـــ وقال أبو الطيب [من الطويل] :

وأتعب خلق الله من زاد همه وقصر عما تشتهى النفس وجده

وقال [من الطويل] :

لحى الله ذى الدنيا مناخاً لراكب فكل بعيد الهم فيها معذب

٢٨ ـــ وقال [من الخفيف] :

ومعال إذا ادعاها سواهم لزمتـــه خيانة السراق

وقال [من الكامل] :

مسكية النفحات إلا أنها وحشية بسواهم لا تعبق

* * *

والآن حين أذكر ما ينعى على أبي الطيب، من معائب شعره ومقابحه :

ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها كفى المرء فضلا أن تعد معائبه(١)

ثم أقفى على آثارها بمحاسنه وسياق بدائعه وفرائده :

فحسن درارى الكواكب أن ترى طوالع فى داج من الليل غيهب

* * *

١ ـــ فمنها قبح المطالع

وحقه الحسن والعذوبة لفظاً ، والبراعة والجودة معنى ، لأنه أول ما يقرع الأذن ويصافح الذهن ، فإذا كانت حاله على الضد مجه السمع ، وزجه القلب ، ونبت عنه النفس ، وجرى أوله على ما تقوله العامة « أول الدن دردى » .

ولأبى الطيب ابتداءات ليست لعمرى من أحرار الكلام وغرره ، بل هى ـ كما نعاها عليه العائبون ـ مستشنعة لا يرفع السمع لها حجابه ، ولا يفتح القلب لها بابه ، كقوله [من الكامل] :

هذى برزت لنا فهجت رسيسا ثم انصرفت وما شفيت نسيسا

(١) فى الصبح (١٨٠) « كفى المرء نبلا » وهو المحفوظ .

فإنه لم يرض بحذف علامة النداء من « هذى » ، وهو غير جائز عند النحويين ، حتى ذكر الرسيس والنسيس ، فأخذ بطرفى الثقل والبرد .

وكقوله [من المنسرح] :

* أوه بديل من قولتى واها *

وهو برقية العقرب أشبه منه بافتتاح كلام فى مخاطبة ملك .

وكقوله ـ وهو مما تكلف له اللفظ المتعقد ، والترتيب المتعسف ، لغير معنى بديع يفى شرفه وغرابته بالتعب فى استخراجه ، ولا تقوم فائدة الانتفاع به بإزاء التأذى باستماعه [من الطويل] :

وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه بأن تسعدا والدمع أشفاه ساجمه

وكقوله فى استفتاح قصيدة فى مدح ملك يريد أن يلقاه بها أول لقية [من الطويل] :

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكن أمانيا

وفى الابتداء بذكر الداء والموت والمنايا مافيه من الطيرة ، التى تنفر منها السوقة ، فضلا عن الملوك .

حكى الصاحب قال : ذكر الأستاذ الرئيس يوما الشعر ، فقال : وإن أول مايحتاج فيه إليه حسن المطلع ، فان ابن أبى الشباب أنشدنى فى يوم نيروز قصيدة ابتداؤها [من الطويل] :

* أقبر وما طلت ثراك يد الطل ؟ *

فتطيرت من افتتاحه بالقبر ، وتنغصت باليوم والشعر ، فقلت : كذلك كانت حال ابن مقاتل لما مدح الداعى بقوله [من الرمل] :

لا تقل بشرى ولكن بشريان غرة الداعى ويوم المهرجان

فإنه نفر من قوله « لا تقل بشرى » أشد نفار ، وقال : أعمى وتبتدىء بهذا فى يوم مهرجان ؟!

قال الصاحب : ومن عنوان قصائده التى تحير الأفهام ، وتفوت الأوهام ،

وتجمع من الحساب مالا يدرك بالأرتيماطيقى ، وبالأعداد الموضوعة للموسيقى [من الوافر] :

أحادٍ أم سداس فى أحاد ليلتنا المنوطة بالتنادى

وهذا كلام الحكل ورطانة الزط (١) وماظنك بممدوح قد تشمر للسماع من مادحه فصك سمعه بهذه الألفاظ الملفوظة والمعانى المنبوذة ؟ فأى هزة تبقى هناك ؟ وأى أريحية تثبت هنا ؟

وقد خطأه فى اللفظ والمعنى كثير من أهل اللغة وأصحاب المعانى . حتى احتيج فى الاعتذار له ، والنضح عنه ، إلى كلام لا يستأهله هذا البيت ، ولا يتسع له هذا الباب .

ومن ابتداءاته البشعة التى تنكرها بديهة السماع قوله [من الوافر] :

ملث القطر أعطشها ربوعا وإلا فاسقها السم النجيعا

وقوله [من الكامل] :

أثلث فإنا أيها الطلل نبكى وترزم تحتنا الإبل

وقوله [من الوافر] :

بقائى شاء ليس هم ارتحالا وحسن الصبر زموا لا الرحالا

قال الصاحب : ومن افتتاحاته العجيبة قوله لسيف الدولة فى التسلية عند المصيبة [من الطويل] :

لا يحزن الله الأمير فإننى لآخذ من حالاته بنصيب

قال الصاحب : لا أدرى لم لا يحزن سيف الدولة إذا أخذ المتنبى بنصيب من القلق !

٢ — ومنها إتباع الفقرة الغراء ، بالكلمة العوراء

والإفصاح بذلك فى شعره عن كثرة التفاوت ، وقلة التناسب . وتنافر الأطراف ، وتخالف الأبيات ، وما أكثر ما يحوم حول هذه الطريقة ، ويعود لهذه العادة السيئة ،

(١) الحكل : مالا يسمع صوته كالذر ، والحكلة : العجمة فى الكلام . والزط : جيل من الهنود .

ويجمع بين البديع النادر والضعيف الساقط . فبينا هو يصوغ أفخر حلي ، وينظم أحسن عقد ، وينسج أنفس وشي ، ويختال في حديقة ورد ، إذا به وقد رمى بالبيت والبيتين في إبعاد الاستعارة ، أو تعويص اللفظ ، أو تعقيد المعنى ، إلى المبالغة في التكلف ، والزيادة في التعمق ، والخروج إلى الإفراط والإحالة والسفسفة ، والركاكة والتبرد والتوحش ، باستعمال الكلمات الشاذة . فمحا تلك المحاسن ، وكدر صفاءها ، وأعقب حلاوتها مرارة لا مساغ لها . واستهـــدف لسهام العائبين ، وتحكك بألسنة الطاعنين : فمن متمثل بقول الشاعر [من الكامل] :

أنت العروس لها جمال رائق لكنها في كل يوم تصرع

ومن مشبه إياه بمن يقدم مائدة تشتمل على غرائب المأكولات وبدائع الطيبات ، ثم يتبعها بطعام وضر ، وشراب عكر ، أومن يتبخر بالند المعشب المثلث ، المركب من العود الهندي والمسك الأصهب والعنبر الأشهب ، ثم يرنقه بإرسال الريح الخبيثة ، ويفسده بالرائحة الردية ، أو بالواحد من عقلاء المجانين ينطق بنوادر الكلم ، وطرائف الحكم ، ثم يعتريه سكرة الجنون فيكون أصلح أحواله وأمثل أقواله أن يقول : اعذروني فإن العذرة متعذرة .

فمما نشر أبو الطيب من هذا النمط قوله [من الخفيف] :

أتراها لكثرة العشاق تحسب الدمع خلقة في المآقي ؟

وهو ابتداء ما سمع بمثله ، ومعنى تفرد بابتداعه ، ثم شفعه بما لا يبالي العاقل أن يسقطه من شعره فقال :

كيف ترثي التي ترى كل جفن راءها غير جفنها غير راقي

وقوله [من الطويل] :

ليالي بعد الظاعنين شكول طوال ، وليل العاشقين طويل

يبن لى البدر الذى لا أريده ويخفين بدراً ما إليه وصول
وما عشت من بعد الأحبة سلوة ولكننى للنائبات حمول
وما شرقى بالماء إلا تذكرا لماء به أهل الخليط نزول
يحرمه لمع الأسنة فوقه فليس لظمآن إليه سبيل

من قصيدة اخترع أكثر معانيها ، وتسهل فى ألفاظها . فجاءت مصنوعة . ثم اعترضته تلك العادة المذمومة ، فقال :

أغركم طول الجيوش وعرضها على شروب للجيوش أكول
إذا لم تكن لليث إلا فريسة غذاه ولم ينفعك أنك فيل

ثم أتى بما هو أطم منه فقال . وذكر الصاحب أنه من أوابده التى لا يسمع طول الأبد بمثلها :

إذا كان بعض الناس سيفاً لدولة ففى الناس بوقات لها وطبول
فإن تكن الدولات قسما فإنها لمن ورد الموت الزؤام تدول

قال الصاحب : قوله « الدولات » و « تدول » من الألفاظ التى لو رزق فضل السكوت عنها لكان سعيدا .

وقال من قصيدة جمع فيها الشذرة والبعرة . والدرة والآجرة [من الكامل] :

لك يا منازل فى الفؤاد منازل أقفرت أنت . وهن منك أواهل

وهذا ابتداء حسن ومعنى لطيف . ثم قال :

وأنا الذى اجتلب المنية طرفه فمن المطالب والقتيل القاتل

وهو وإن كان مأخوذا من قول دعبل [من الكامل] :

لا تطلبا بظلامتى أحدا طرفى وقلبى فى دمى اشتركا

فإنه آخذ بأطراف الرشاقة والملاحة . ثم استمر فى قصيدته . فجاء بالمتوسط المقارب والبديع النادر والردىء النافر ، حيث قال :

ولذا اسم أغطية العيون جفونها من أنها عمل السيوف عوامل

وهذا معنى فى نهاية الحسن واللطف لو ساعده اللفظ ، ثم قال :

كم وقفة سجرتك شوقا بعدما غرى الرقيب بنا ولج العاذل

فلم يحسن موقع قوله « سجرتك » أى ملأتك (هكذا الرواية بالجيم . ولو كانت بالحاء من السحر لم يكن بأس) ثم قال وملح :

دون التعانق ناحلين كشكلتى نصب أدقهما وضم الشاكل

أى : قريب بعضنا من بعض ، ولم نتعانق خوف الرقيب . ثم قال فأحسن غاية الإحسان :

للهو آونة تمر كأنها قبل يزودها حبيب راحل

جمح الزمان فما لذيذ خالص مما يشوب ، ولا سرور كامل

حتى أبو الفضل بن عبد الله رؤ يته المنى وهو المقام الهائل

قال ابن جنى : وهذا خروج غريب ظريف حسن ، ما أعرفه لغيره ، يقول : إن المنى رؤيته إلا أن هيبته تهول . ثم قال فجمع أوصافا فى بيت واحد :

للشمس فيه وللرياح وللسحا ب وللبحار وللأسود شمائل

ثم قال وتحذق وتبرد :

ولديه ملعقيان والأدب المفا د وملحياة وملمات مناهل [1]

وإنما ألم فى صدر هذا البيت بقول أبى تمام [من المنسرح] :

« نأخذ من ماله ومن أدبه »

ثم قال :

علامة العلماء واللج الذى لا ينتهى ، ولكل لج ساحل

---

(١) يريد : من العقيان ، ومن الحياة ، ومن المهات ، فحذف النون من « من » الجارة وألف الوصل من المجرور بها .

ثم قال فأحال :

لو طاب مولد كل حى مثله ولد النساء ومالهن قوابل

قال القاضى أبو الحسن : إن طيب المولد لا يستغنى به عن القابلة . وإن استغنى عنها كان ماذا ؟ وأى فخر فيه ؟ وأى شرف ينال به ؟

ثم توسط وقارب فقال :

ليزد بنو الحسن الشراف تواضعا هيهات تكتم فى الظلام مشاعل

ستروا الندى ستر الغراب سفاده فبدا ، وهل يخفى الرباب الهاطل ؟

ثم قال وتوحش وتبغض ما شاء الحاسد :

جفخت وهم لا يجفخون بها بهم شيم على الحسب الأغر دلائل

يريد بالجفخ الفخر والبذخ ، ثم قال :

يا افخر فإن الناس فيك ثلاثة : مستعظم ، أو حاسد ، أو جاهل

أى : يا هذا افخر . فحذف المنادى . وتباغض وتبادى (١) ، ثم قال :

لا تجسر الفصحاء تنشد ههنا شعرا . ولكنى الهزبر الباسل

ثم قال وأرسله مثلا سائرا ، وأحسن جدا :

وإذا أتتك مذمتى من ناقص فهى الشهادة لى بأنى كامل

ما نال أهل الجاهلية كلهم شعرى . ولا سمعت بسحرى بابل

ثم قال وتعسف فى اللفظ :

أما وحقك وهو غاية مقسم للحق أنت ، وما سواك الباطل

---

(١) قد حذف المنادى قبل فعل الأمر كثيراً فى شعر العرب ، فمن ذلك قول ذى الرمة :

ألا يا اسلمى يا دارمى على البلى ولا زال منهلا بجرعائك القطر

ومنه قول الآخر :

ألا يا اسلمى ياهند هند بنى بدر ولا زال حياناعدى آخر الدهر

الطيب أنت إذا أصابك طيبه والماء أنت إذا اغتسلت الغاسل

وتقدير الكلام : الطيب أنت طيبه إذا أصابك ، والماء أنت غاسله إذا اغتسلت به ، وإنما ألم فيه بقول القائل [من الخفيف] :

وتزيدين طيب الطيب طيباً إن تمسيه ، أين مثلك أينا ؟!

وقال من قصيدة كهذه التي تقدمت [من البسيط] :

قد علم البين منا البين أجفانا تدمى ، وألف في ذا القلب أحزانا

أملت ساعة ساروا كشف معصمها ليلبث الحي دون السير حيرانا

بالواخدات وحاديها وبي قمر يظل من وخدها في الخدر حشيانا

وحشيان — بالحاء المهملة — من الغريب الوحشي ، الذي لا يأنس به السمع ، ولا يقبله القلب . يقال : حشي الرجل حشيا فهو حشيان ، إذا أخذه البهر . يقول : إذا وخدت الإبل تحت هذا القمر أخذه البهر لترفه . ومن المؤدبين من يروي خشيانا بالخاء معجمة من الخشية

ثم قال ، وأحسن ولطف وظرف :

قد كنت أشفق من دمعي على بصري فاليوم كل عزيز بعدكم هانا

ثم أراد أن يزيد على الشعراء في وصف المطايا ، فأتى - كما قال الصاحب - بأخزى الخزايا ، فقال :

لو استطعت ركبت الناس كلهم إلى سعيد بن عبد الله بعرانا

قال الصاحب : ومن الناس أمه ، فهل ينشط لركوبها ؟ والممدوح لعل له عصبة لا يريد أن يركبوا إليه . فهل في الأرض أفحش من هذا السخف وأوضع من هذا التبسط ؟

ثم أراد أن يستدرك هذه الطامة بقوله :

فالعيس أعقل من قوم رأيتهم عما يراه من الإحسان عميانا

وقال، ثم قال وأجاد في مدح الممدوح :

إن كوتبوا، أولقوا. أوحوربوا، وجدوا
في الخط واللفظ والهيجاء فرسانا

كأن ألسنهم في النطق قدجعلت على رماحهم في الطعن خرصانا

كأنهم يردون الموت من ظمإ أو ينشقون من الخطى ريحانا

ثم قال :

خلائق لو حواها الزنج لانقلبوا ظمى الشفاه جعاد الشعر غرانا

والزنجي لايوجد إلا جعد الشعر، فكيف ينقلبون عن الجعودة إلى الجعودة؟ وقد احتج عنه أصحاب المعاني بما يطول ذكره.

والعجب كل العجب من خاطر يقدح بمثل قوله في قصيدة [من المتقارب]

وملمومة زرد ثوبها ولكنه بالقنا مخمل

يفاجئ جيشاً بها حينه وينذر جيشاً بها القسطل

ثم يتصور في هذا الكلام الغث الرث فيتبعه به حيث يقول :

جعلتك في القلب لي عدة لأنك باليد لا تجعل

ولو قاله بعض صبيان المكاتب لاستحيا له منه

* * *

٣ — ومنها استكراه اللفظ، وتعقيد المعنى

وهو أحد مراكبه الخشنة التي يتسنمها، ويأخذ عليها في الطرق الوعرة فيضل ويضل ويتعب ويُتعب ولا ينجح، إذ يقول في وصف الناقة [من الكامل]:

فتبيت تسئد مسئداً في نيها إسئادها في المهمه الأنضاء

وتقديره : فتبيت تسئد مسئد الأنضاء في نيها إسآدها في المهمه : أي كلما قطعت

الأرض قطعت الأرض شحمها على احتذاء ومثال هذا بهذا

ويقول فى المدح [من الكامل] :

أنى يكون أبا البرايا آدم وأبوك ، والثقلان أنت . محمد

وتقديره : أنى يكون آدم أبا البرايا وأبوك محمد وأنت الثقلان.

وقال من نسيب قصيدة [من الطويل] :

إذا عذلوا فيها أجبت بأنة حبيبتا قلبي فؤادى هيا جمل

أراد « يا حبيبتى » ثم أبدل الياء من حبيبتى ألفا تخفيفاً ، و « قلبي » منصوب لأنه بدل من حبيبتا ، و « فؤادى » بدل من قلبي ، وهذا كقولك : أخى سيدى مولاى ، نداء بعد نداء ، ويقال فى النداء : يا زيد ، وأيا زيد ، وهيا زيد

وأشباه هذه الأبيات كثيرة فى شعره كقوله [من الطويل] :

لسانى وعينى والفؤاد وهمتى أود اللواتى ذا اسمها منك والشطر

وقوله [من الطويل] :

فتى ألف جزء رأيه فى زمانه أقل جزى بعضه الرأى أجمع

وقوله [من الكامل] :

لولم تكن من ذا الورى اللذمنكهو عقمت بمولد نسلها حواء

وهو مما اعتل لفظه ، ولم يصح معناه ، فإذا قرع السمع لم يصل إلى القلب إلا بعد إتعاب الفكر ، وكد الخاطر ، والحمل على القريحة . [ثم] إن ظفر بعد العناء والمشقة فقلما يحصل على طائل

* * *

٤ — ومنها عسف اللغة والإعراب

وهو مما سبق إلى القلوب إنكاره ، وإن كان عند المحتجين عنه الاعتذار له ، والمناضلة دونه ، كقوله [من الطويل] :

فدى من على الغبراء أولهم أنا   لهذا الأبي الماجد الجائد القرم

ولم يحك عن العرب « الجائد » وإنما المحكي رجل جواد ، وفرس جواد ، ومطر جواد.

وكقوله [من الطويل] :

فأرحام شعر تتصلن لدنه   وأرحام مال لا تني تتقطع

وتشديد النون من « لدن » غير معروف في لغة العرب.

وكقوله [من الوافر] :

شديد البعد من شرب الشمول   ترنج الهند أو طلع النخيل

والمعروف عند العرب الأترج ، والترنج مما يغلط فيه العامة. قال الصاحب : لا أدري الاستهلال أحسن ، أم المعنى أبدع ، أم قوله ترنج أفصح ؟

وكقوله [من الكامل]

بيضاء يمنعها تكلم دلها   تيها ، ويمنعها الحياء تميسا

فنصب « تميس » مع حذف أن ، وهو ضعيف عن أكثر النحويين.

وكقوله [من الكامل] :

وتكرمت ركباتها عن مبرك   تقعان فيه ليس مسكاً أذفرا

فجمع الركبات ثم انتقل إلى التثنية فقال « تقعان » ، وهو ضعيف وغير سديد في صناعة الإعراب

وكقوله [من الخفيف] :

ليس إلاك يا على همام   سيفه دون عرضه مسلول

وكقوله [من السريع] :

لم تر من نادمت إلا كا   لا لسوى ودك لي ذا كا

ووصل الضمير بإلا ، وحقه أن ينفصل عنه كما قال الله تعالى [1] : « ضل من تدعون إلا إياه »

وكقوله [من البسيط] :

« لأنت أسود فى عينى من الظلم »

وألف التعجب [2] لا تدخل على أفعل ، وإنما يقال : أشد سوادا وحمرة وخضرة

وكقوله [من الكامل] :

« جللا كما بى فليك التبريح »

وحذف النون من «يكن» إذا استقبلها الألف واللام خطأ عند النحويين [3] ، لأنها تتحرك إلى الكسر ، وإنما تحذف استخفافا إذا سكنت

وكقوله [من الطويل] :

« أمط عنك تشبيهى بما وكأنه »

والتشبيه بما محال

وكقوله [من الكامل] :

لعظمت حتى لو تكون أمانة ما كان مؤتمناً بها جبرين

قال الصاحب : وقلب هذه اللام إلى النون ، أبغض من وجه المنون . ولا أحسب جبرائيل عليه السلام يرضى منه بهذا المجاز ، هذا على ما فى البيت من الفساد والقبح

---

(١) من الآية ٦٧ من سورة الاسراء

(٢) يريد أن صيغة « أفعل » فى التفضيل والتعجب لا تبني من الأفعال الدالة على الألوان ، وهذا رأى كثير من النحاة ، ومنهم من أجاز البناء من البياض والسواد بخصوصهما

(٣) أجازه يونس بن حبيب ، واستدل له بوروده فى بعض القراءات وفى الشعر العربي من مثل قول الشاعر :

فان لم تك المرآة أبدت وسامة فقد أبدت المرآة جبهة ضيغم

وكقوله [من الطويل] :

حملت إليــــه من ثنائي حديقة سقاها الحجاسق الرياض السحائب

أى : سقى السحائب الرياض(١)

* * *

٥ — ومنها الخروج عن الوزن

كقوله [من الطويل] :

تفكره علم ، ومنطقه حكم وباطنه دين ، وظاهره ظرف

وقد خرج فيه عن الوزن لأنه لم يجىء عن العرب « مفاعيلن » فى عروض الطويل غير مصرع . وإنما جاء « مفاعلن » . قال الصاحب : ونحن نحاكمه إلى كل شعر للقدماء والمحدثين على بحر الطويل ، فما نجد له على خطئه مساعدا

قال القاضى أبو الحسن : وقد عيب أيضا بقوله [من الرمل] :

إنما بدر بن عمار سحاب هطل فيه ثواب وعقاب

لأنه أخرج الرمل على « فاعلاتن » وأجرى جميع القصيدة على ذلك فى الأبيات غير المصرعة ، وإنما جاء الشعر على « فاعلن » وإن كان أصله فى الدائرة فاعلاتن

٦ — ومنها استعمال الغريب الوحشى

وإذا كان المتنبي من المحدثين . بل من العصريين . وجرى على رسومهم فى اختيار الألفاظ المعتادة المألوفة بينهم ، بل ربما انحط عنهم بالركاكة والسفسفة . ثم تعاطى الغريب الوحشى ، والشاذ البدوى . بل ربما زاد فى ذلك على أقحاح المتقدمين — حصل كلامه بين طرفى نقيض ، وتعرض لاعتراض الطاعنين .

(١) فيه الفصل بين المضاف والمضاف إليه بمفعول المضاف ، وهو جائز عند الكوفيين . وله شواهد

فمن ذلك الفن الذى ينادى على نفسه ، ويقلق موقعه فى شعره وشعر غيره من أبناء عصره — قوله [من الوافر] :

وما أرضى لمقلته بحلم إذ انتبهت توهمه ابتشاكا

والابتشاك : الكذب ، ولم أسمع فيه شعراً قديماً ولا محدثاً سوى هذا البيت.

وقوله فى وصف الغيث [من الوافر] :

لساحيه على الأجداث حفش كأيدى الخيل أبصرت المخالى

الساحي : القاشر ، ومنه سميت المسحاة لأنها تقشر وجه الأرض ، والحفش : مصدر حفش السيل حفشاً ، إذا جمع الماء من كل جانب إلى مستنقع

وقوله فى وصف السيف [من الخفيف] .

ودقيق قدى الهباء أنيق متوال فى مستو هزهاز

قدى : بمعنى مقدار ، يقال : بينهما قيد رمح ، وقدى رمح

وقوله [من الكامل] :

﴿ تطس الخدود كما تطسن اليرمعا ﴾

تطسن : أى تدق ، واليرمع : الحجارة الرخوة

وقوله [من الكامل] :

وإلى حصى أرض أقام بها بالناس من تقبيلها يلل

اليلل : إقبال الأسنان وانعطافها على باطن الفم ، ولم أسمعه فى غير شعره.

وقوله [من الكامل] :

﴿ الشمس تشرق والسحاب كنهوراً ﴾

الكنهور : القطع من السحاب العظيمة

وقوله [من البسيط] :

[وكيف أستر ما أوليت من حسن] وقد غمرت نوالا أيها النال

والنال : المعطى

وقوله [من الوافر] :

* أسائلها عن المتديريها *

قال الصاحب : لفظة « المتديريها » لو وقعت فى بحر صاف لكدرته ، ولو ألقى ثقلها على جبل سام لهده . وليس للمقت فيها نهاية ، ولا للبرد معها غاية . المتديروها : المتخذوها داراً

قال الصاحب : ومن أطم ما يتعاطاه التفاصح بالألفاظ النافرة، والكلمات الشاذة . حتى كأنه وليد خباء ، وغذى لبن ، لم يطأ الحضر ، ولم يعرف المدر . فمن ذلك قوله [من الطويل] :

أيفطمه التوراب قبل فطامه ويأكله قبل البلوغ إلى الأكل

وليس ذلك سائغا لمثله ، وهو وليد قرية ، ومعلم صبية

ومن الجموع الغريبة التى يوردها قوله فى جمع الأرض [من الوافر] :

أروض الناس من ترب وخوف وأرض أبى شجاع من أمان

وقوله فى جمع اللغة [من الطويل] :

* عليم بأسرار الديانات واللغى *

وقوله فى جمع الدنيا [من الطويل]

* أعز مكان فى الدنى سرج سابح *

وقوله فى جمع الأخ [من الخفيف] :

* كل آخائه كرام بنى الدنيا *

قال الصاحب : لو وقع « الآخاء » فى رائية الشماخ لا ستثقل ، فكيف مع أبيات منها :

قد سمعنا ما قلت فى الأحلام وأنلناك بدرة فى المنام

والكلام إذا لم يتناسب زيفته جهابذته ، وبهرجته نقاده

* * *

٧ — ومنها الركاكة والسفسفة بألفاظ العامة والسوقة ومعانيهم

كقوله [من الطويل] :

رماني خساس الناس من صائب استه وآخر قطن من يديه الجنادل

وقوله [من الوافر] :

وإن ما زيتني فاركب حصانا ومثله تخر له صريعا

وقوله [من الكامل] :

إن كان لا يدعى الفتى إلا كذا رجلا فسم الناس طرا إصبعا

وقوله [من الوافر] :

قسا فالأسد تفزع من يديه ورق فنحن نفزع أن يذوبا

وقوله [من الوافر] :

تألم درزه والدرز لين كما يتألم العضب الصنيعا

وعلى ذكر الدرز فقد حكى الصاحب في كتاب الروزنامجة من حديث لحظة الطولونية المغنية مايشبه معنى هذا البيت ، وهو أنه قال : سمعتها تقول : ياجارية . على بالقميص المعمول في النسج . فقد آذاني ثقل الدروز

وقوله [من الخفيف] :

لسرى لباسه خشن القطـ ـن ومروى مرو لبس القرود

وقوله [من المجتث] :

ما أنصف القوم ضبه وأمه الطرطبه

رموا برأس أبيه وباكوا الام غلبه

وقوله [من البسيط] :

بياض وجه يريك الشمس طالعة ودر لفظ يريك الدر مخشلبا

وقوله [من الكامل] :

إن كان مثلك كان أو هو كائن فبرئت حينئذ من الإسلام

قال الصاحب : « حينئذ » ،ههنا أنفر من عير منفلت .

قال : ومن ركيك صنعه ، في وصف شعره ، والزراية على غيره ، قوله [من الخفيف] :

إن بعضاً من القريض هراء ليس شيئاً . وبعضه أحكام

منه ما يجلب البراعة والذهـ ـن ، ومنه ما يجلب البرسام

وقال : وههنا بيت نرضى باتباعه فيـــه ، وما ظنك بمحكم مناويه ثقة بظهور حقه وإيراء زنده ؟ ، ولو لم يكن التحكيم بعد أبي موسى من موجب العزم ، ومقتضى الحزم ، وهو [من الطويل] :

أطعناك طوع الدهر يا ابن يوسف بشهوتنا والحاسدو لك بالرغم

وقوله [من الخفيف] :

تقضم الجمر والحديد الأعادي دونه قضم سكر الأهواز

وقوله [من الكامل] :

فكأنما حسب الأسنة حلوة أوظنها البرنى والآزاذا [1]

قال الصاحب : إذا جمع السكر إلى البرنى والأزاذ تم الأمر .

قال : وكانت الشعراء تصف المآزر ، تنزيها لألفاظها عما يستشنع ذكره ، حتى تخطى هذا الشاعر المطبوع إلى التصريح الذي لم يهتد له غيره فقال [من الكامل] :

إني على شغفي بما في خمرها لأعف عما في سراويلاتها

وكثير من العهر أحسن من هذا العفاف

قال القاضي : ومن أمثاله العامية قوله [من المتقارب] :

(١) البرني : نوع من التمر ، وكذلك الأزاذ ، وأصله بفتح الهمزة بزنة سحاب ، ولكنه مد الهمزة ليقيم الوزن .

وكل مكان أتاه الفتى على قدر الرجل فيه الخطى

* * *

ومنها إبعاد الاستعارة ، والخروج بها عن حدها

كقوله [من البسيط] :

مسرة فى قلوب الطيب مفرقها وحسرة فى قلوب البيض واليلب

وقوله [من المنسرح] :

تجمعت فى فؤاده همم ملء فؤاد الزمان إحداها

وقوله [من الكامل] :

لم يحك نائلك السحاب ، وإنما حمت به فصبيبها الرحضاء

وقوله [من البسيط] :

إلا يشب فلقد شابت له كبد شيباً إذا خضبته سلوة نصلا

وقوله [من الطويل] :

وقد ذقت حلواء البنين على الصبا فلا تحسبنى قلت ما قلت عن جهل

فجعل للطيب والبيض واليلب قلوباً ، وللسحاب حمى ، وللزمان فؤاداً ، وللكبد شيباً ، وهذه استعارات لم تجر على شبه قريب ولا بعيد ، وإنما تصح الاستعارة وتحسن على وجه من الوجوه المناسبة ، وطرق من الشبه والمقاربة .

قال الصاحب : وما زلنا نتعجب من قول أبى تمام [من الكامل] :

لا تسقنى ماء الملام [فإننى صب قد استعذبت ماء بكائى]

فخف علينا بحلواء البنين .

ومنها الاستكثار من قول « ذا »

قال القاضي : وهي ضعيفة في صنعة الشعر ، دالة على التكلف ، وربما وافقت موضعا تليق به فاكتست قبولا . فأما في مثل قوله [من الخفيف]

قد بلغت الذي أردت من البـــر ومن حق ذا الشريف عليكا
وإذا لم تسر إلى الدار في وقـــتك ذا خفت أن تسير إليكا

وقوله [من الكامل] :

لولم تكن من ذاالورى اللذمنك هو عقمت بمولد نسلها حواء

وقوله [من الكامل] :

عن ذا الذي حرم الليوث كماله تنسى الفريسة خوفه لجماله

وقوله [من المنسرح] :

وإن يكينا أنه فلا عجب ذا الجزر في البحر غير معهود

وقوله [من الطويل] :

أفي كل يوم ذا الدمستق مقدم قفاه على الإقدام للوجه لائم

وقوله [من الطويل] :

أبا المسك ذا الوجه الذي كنت تائقا إليه ، وذا الوقت الذي كنت راجيا

وقوله [من الطويل] :

* وأعجب من ذا الهجر ، والوصل أعجب *

وقوله [من البسيط] :

أريد من زمني ذا أن يبلغني ما ليس يبلغه في نفسه الزمن

وقوله [من الطويل] :

* يضاحك في ذا اليوم كل حبيبة *

فهو — كما تراه — سخافة وضعف ، ولو تصفحت شعره لوجدت فيه أضعاف

ماذكرناه من هذه الإشارة ، وأنت لا تجد منها فى عدة دواوين جاهلية حرفاً ، والمحدثون أكثر استعانة بها ، لكن فى الفرط والندرة ، أو على سبيل الغلط والفلتة .

* * *

ومنها الإفراط فى المبالغة ، والخروج فيه إلى الإحالة

كقوله [من الوافر] :

ونالوا ما اشتهوا بالحزم هونا وصاد الوحش نملهم دبيبا

وقوله [من البسيط] :

وضاقت الأرض حتى صار هاربهم إذا رأى غير شىء ظنه رجلا
فبعده وإلى ذا اليوم لو ركضت بالخيل فى لهوات الطفل ما سعلا

وقوله [من الوافر] :

وأعجب منك كيف قدرت تنشا وقد أعطيت فى المهد الكمالا
وأقسم لو صلحت يمين شىء لما صلح العباد له شمالا

وقوله [من الطويل] :

بمن أضرب الأمثال ؟ أم من أقيسه إليك وأهل الدهر دونك والدهر ؟

وقوله [من الطويل] :

ولو قلم ألقيت فى شق رأسه من السقم ما غيرت من خط كاتب

وقوله [من البسيط] :

من بعد ما كان ليلى لا صباح له كأن أول يوم الحشر آخره

فهو مما يستهجن فى صنعة الشعر ، على أن كثيرا من النقدة لا يرتضون هذا الإفراط كله .

* * *

ومنها تكرير اللفظ فى البيت الواحد من غير تحسين

كقوله [من الطويل] :

ومن جاهل بى وهو يجهل جهله ويجهل علمى أنه بى جاهل

وقوله فى هذه القصيدة :

فقلقلت بالهم الذى قلقل الحشا قلاقل عيس كلهن قلاقل

قال الصاحب : ومازال الناس يستبشعون قول مسلم [من الكامل] :

سلت وسلت ثم سل سليلها فأتى سليل سليلها مسلولا

حتى جاء هذا المبدع فقال [من الوافر] :

وأفجع من فقدنا من وجدنا قبيل الفقد مفقود المثال

وأظن المصيبة فى الراثى أعظم منها فى المرثى .

وقوله [من الطويل] :

عظمت فلما لم تكلم مهابة تواضعت وهو العظم عظما عن العظم

قال الصاحب : وما أحسن ما قال الأصمعى لمن أنشده [من الطويل] :

فما للنوى جد النوى قطع النوى كذاك النوى قطاعة لوصال

لو سلط الله تعالى على هذا البيت شاة فأكلت هذا النوى كله ! .

وقوله [من الطويل] :

ولا الضعف حتى يتبع الضعف ضعفه ولا ضعف ضعف الضعف بل مثله ألف

وقوله [من الوافر] :

ولم أر مثل جيرانى ومثلى لمثلى عند مثلهم مقام

وقوله [من البسيط] :

العارض الهتن ابن العارض الهتن ابن العارض الهتن ابن العارض الهتن

وقوله [من الطويل] :

وإني وإن كان الدفين حبيبه حبيب إلى قلبي حبيب حبيبي

وقوله [من الطويل] :

لك الخير غيري رام من غيرك الغنى وغيري بغير اللاذقية لاحق

وقوله [من المنسرح] :

ملولة ما تدوم ليس لها من ملل دائم بها ملل

وقوله [من الوافر] :

قبيل أنت أنت وأنت منهم وجدك بشر الملك الهمام

وقوله [من الوافر] :

وكلكم أتى مأتى أبيه فكل فعال كلكم عجاب

وقوله [من الطويل] :

وما أنا وحدي قلت ذا الشعر كله ولكن شعري فيك من نفسه شعر

وقوله [من الخفيف] :

إنما الناس حيث أنت ، وما النا س بناس في موضع منك خالى

وقوله [من الطويل] :

ولولا تولى نفسه حمل حمله عن الأرض لانهدت وناء بها الحمل

وقوله [من الوافر] :

ونهب نفوس أهل النهب أولى بأهل النهب من نهب القماش

وقوله [من الطويل] :

وطعن كأن الطعن لا طعن عنده

وقوله [من الطويل] :

أراه صغيرا قدرها عظم قدره فما لعظيم قدره عنده قدر

وقوله [من الوافر] :

جواب مسائلي أله نظير ولا لك في سؤالك لا ألالا

قال الصاحب : ما قدرت أن مثل هذا البيت يلج سمعا ، وقد سمعت الفأفاء ، ولم أسمع باللألاء ، حتى رأيت هذا المتكلف المتعسف ، الذي لا يقف حيث يعرف

* * *

ومنها إساءة الأدب بالأدب

كقوله [من الكامل] :

فغدا أسيرا قد بللت ثيابه بدم ، وبل ببوله الأفخاذا

وقوله [من المتقارب] :

وما بين كاذتي المستغير كما بين كاذتي البائل(١)

وقوله [من الطويل] :

خف الله واستر ذا الجمال ببرقع فإن لحت حاضت في الخدور العواتق

ويقال : لما أنكرت عليه « حاضت » غيره فجعله « ذابت » ، وذكر البول والحيض مما لا يحسن وقوعه في مخاطبة الملوك والرؤساء.

وأقبح موقعا من ذلك قوله في قصيدة يرثي بها أخت سيف الدولة ، ويعزيه عنها حيث يقول [من البسيط] :

وهل سمعت سلاما لي ألم بها فقد أطلت وما سلمت عن كثب

وما باله يسلم على حرم الملوك ، ويذكر منهن ما يذكره المتغزل في قوله [من البسيط] :

يعلمن حين تحيي حسن مبسمها وليس يعلم إلا الله بالشنب

---

(١) الكاذة : ما حول السوأة من ظاهر الفخذين ، أو لحم مؤخرهما

وكان أبو بكر الخوارزمي يقول : لو عزاني إنسان عن حرمة لي بمثل هذا لألحقته بها ، وضربت عنقه على قبرها . قال الصاحب : ولقد مررت على مرثية له في أم سيف الدولة تدل مع فساد الحس ، على سوء أدب النفس ، وما ظنك بمن يخاطب ملكا في أمه بقوله [من الوافر] :

بعيشك هل سلوت فإن قلبي وإن جانبت أرضك غير سالى ؟

فيتشوق إليها ، ويخطىء خطأ لم يسبق إليه . وإنما يقول مثل ذلك من يرثى بعض أهله ، فأما استعماله إياه في هذا الموضع فدال على ضعف البصر بمواقع الكلام . وفي هذه القصيدة :

رواق العز فوقك مسبطر وملك على ابنك في كمال

ولعل لفظة الاسبطرار في مراثي النساء من الخذلان الرقيق الصفيق المتين قال : ولما أبدع في هذه القصيدة واخترع قال :

صلاة الله خالقنا حنوط على الوجه المكفن بالجمال

فلا أدرى هذه الاستعارة أحسن أم وصفه وجه والدة ملك يرثيها بالجمال أم قوله في وصف قرابتها وجواريها

أتتهن المصائب غافلات فدمع الحزن في دمع الدلال !؟

* * *

ومنها الإيضاح عن ضعف العقيدة ورقة الدين

على أن الديانة ليست عيارا على الشعراء ، ولاسوء الاعتقاد سبباً لتأخر الشاعر ، ولكن للإسلام حقه من الإجلال الذى لا يسوغ الإخلال به قولا وفعلا ونظما ونثرا ، ومن استهان بأمره ، ولم يضع ذكره وذكر مايتعلق به في موضع استحقاقه ، فقد باء بغضب من الله تعالى ، وتعرض لمقته في وقته ، وكثيرا ما قرع المتنبي هذا الباب بمثل قوله [من الخفيف] :

يترشفن من فمي رشفات هن فيه أحلى من التوحيد

وقوله [من الطويل] :

وتصغي الذي يكنى أبا الحسن الهوى ونرضى الذي يسمى الإله ولا يكنى

وقوله من قصيدة مدح بها العلوى [من الطويل] :

وأبهر آيات التهامي أنه أبوكم ، وإحدى مالكم من مناقب

وقوله [من الكامل] :

تتقاصر الأفهام عن إدراكه مثل الذى الأفلاك فيه والدنا

وقد أفرط جداً ؛ لأن الذى الأفلاك فيه والدنا هو علم الله عز وجل .

وقوله [من المنسرح] :

الناس كالعابدين آلهة وعبده كالموحد اللاها

وقوله [من الكامل] :

لو كان علمك بالإله مقسماً في الناس ما بعث الإله رسولا

أو كان لفظك فيهم ما أنزل الـ توراة والفرقان والإنجيلا

وقوله [من الكامل] :

لو كان ذو القرنين أعمل رأيه لما أتى الظلمات صرن شموساً

أو كان صادف رأس عازر سيفه في يوم معركة لأعيا عيسى

عازر : اسم الرجل الذى أحياه المسيح عليه الصلاة والسلام ، بإذن الله عز وجل .

أو كان لج البحر مثل يمينه ما انشق حتى جاز فيه موسى

وكأن المعانى أعيته حتى التجأ إلى استصغار أمور الأنبياء ، وفي هذه القصيدة

يامن نلوذ من الزمان بظله أبداً ، ونطرد باسمه إبليسا

وقوله وقد جاوز حد الإساءة [من مجزوء الرجز] :

أي محل أرتقى ؟! أي عظيم أتقى ؟!

وكل ما قد خلق الله وما لم يخلق
محتقر في همتي كشعرة في مفرقي

وقبيح بمن أوله نطفة مذرة ، وآخره جيفة قذرة ، وهو فيما بينهما حامل بول وعذرة ، أن يقول مثل هذا الكلام الذي لاتسعه معذرة .

* * *

ومنها الغلط بوضع الكلام في غير موضعه

كقوله [من الوافر] :

أغار من الزجاجة وهي تجري على شفة الأمير أبي الحسين

وهذه الغيرة إنما تكون بين المحب ومحبوبه ، كما قال أبو الفتح كشاجم وأحسن [من الوافر] :

أغار إذا دنت من فيه كأس على در يقبله الزجاج

فأما الأمراء والملوك فلا معنى للغيرة على شفاهها !

وكقوله [من المتقارب] :

وغير الدمستق قول الوشاة إن علياً ثقيل وصيب

فجعل الأمراء يوشى بهم ، وإنما الوشاية السعاية ونحوها [من الرعية] ، ومن شأن الممدوح أن يفضل على عدوه ، ويجرى العدو مجرى بعض أصحابه وليس في اللغة أن يقال : وشى فلان بالسلطان إلى بعض رعيته .

وكقوله في وصف الحمى المعرقة [من الوافر] :

إذا ما فارقتني غسلتني كأنا عاكفان على حرام

وليس الحرام أخص بالاغتسال منه من الحلال .

وكقوله في وصف مهره [من الرجز] :

* وزاد في الأذن على الخرانق *

وأذن الفرس يستحب فيها الدقة والانتصاب ، وتشبه بطرف القلم ، وأذن الأرنب ، على الضد من هذا الوصف .

* * *

ومنها امتثال ألفاظ المتصوفة

واستعمال كلماتهم المعقدة ، ومعانيهم المغلقة ، في مثل قوله في وصف فرس [من الطويل] :

[وتسعدني في غمرة بعد غمرة | سبوح لها منها عليها شواهد

وقوله [من الوافر] :

إذا ما الكأس أرعشت اليدين | صحوت فلم تحل بيني وبيني

وقوله [من الطويل] :

أفيكم فتى حي يخبرني عني | بما شربت مشروبة الراح من ذهني

وقوله [من مخلع البسيط] :

نال الذي نلت منه مني | لله ما تصنع الخمور !

وقوله [من الكامل] :

كبر العيان على حتى إنه | صار اليقين من العيان توهما

وقوله [من الكامل] :

وبه يضن على البرية ، لا بها | وعليه منها ، لا عليها ، يوسى

وقوله [من الوافر] :

ولولا أنني في غير نوم | لكنت أظنني مني خيالا

قال الصاحب : ولو وقع قوله [من الخفيف] :

نحن من ضايق الزمان له فيـ | ـك ، وخانته قربك الأيام

في عبارات الجنيد والشبلي لتنازعته المتصوفة دهرا بعيدا

ومن أشد ما قاله في هذا المعنى قوله [من الطويل] :

ولكنك الدنيا إلى حبيبة | فما عنك لي إلا اليك ذهاب

* * *

ومنها الخروج عن طريق الشعر إلى طريق الفلسفة

كقوله [من الكامل] :

ولجدت حتى كدت تبخل حائلا للمنتهى ، ومن السرور بكاء

وقوله [من الخفيف] :

والأسى قبل فرقة الروح عجز والأسى لا يكون قبل الفراق

وقوله [من الخفيف] :

إلف هذا الهواء أوقع فى الأنفس أن الحمام مر المذاق

وقوله [من البسيط] :

تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم إلا على شجب والخلف فى الشجب[١]

فقيل : تخلص نفس المرء سالمة ، وقيل : تشرك جسم المرء فى العطب

وقوله [من الكامل] :

خلقت صفاتك فى العيون كلامه كالخط يملأ مسمعى من أبصرا

وقوله [من الوافر] :

تمتع من سهاد أو رقاد ولا تأمل كرى تحت الرجام[٢]

فإن لثالث الحالين معنى سوى معنى انتباهك والمنام

قال ابن جنى : أرجو أن لا يكون أراد بذلك أن نومة القبر لا انتباه لها .

* * *

(١) الشجب : الهلاك .

(٢) الرجام : الحجارة توضع القبر .

ومنها استكراه التخلص

قال القاضي : لعلك لا تجد في شعره تخلصا مستكرها إلا قوله [من الوافر] :

أحبك أو يقولوا : جر نمل ثبيرا وابن إبراهيم ريعا (١)

فأما قوله [من الطويل] :

فأفنى وما أفنته نفسى ، كأنما أبو الفرج القاضى له دونها كهف

وقوله [من البسيط] :

لو استطعت ركبت الناس كلهم إلى سعيد بن عبد الله بعرانا

وقوله [من الطويل] :

أعز مكان في الدنا سرج سابح وخير جليس في الزمان كتاب

وبحر أبو المسك الخضم الذى له على كل بحر زخرة وعباب

فهى وإن لم تكن مستحسنة مختارة فليست بالمستهجن الساقط .

* * *

ومنها قبح المقاطع

كقوله بعد أبيات أحسن فيها غاية الإحسان ، وترقى الدرجة العالية ، وهى [من الطويل] :

ولله سر فى علاك ، وإنما كلام العدا ضرب من الهذيان

أتلتمس الأعداء بعد الذى رأت قيام دليل أو وضوح بيان ؟

رأت كل من ينوى لك الغدر يبتلى بغدر حياة أو بغدر زمان

قضى الله يا كافور أنك واحد وليس بقاض أن يرى لك ثانى

فما لك تختار القسى ، وإنما عن السعد ترمى دونك الثقلان

(١) ثبير : جبل ، وابن إبراهيم : هو على بن إبراهيم التنوخى ممدوحه

وما لك تعنى بالأسنة والقنا ... وجدك طعان بغير سنان ؟!

ولم تحمل السيف الطويل نجاده ... وأنت غنى عنه بالحدثان

أرد لى جميلا جدت أو لم تجد به ... فإنك ما أحببت فى أتانى

هذا البيت الذى هو عوذتها

لو الفلك الدوار أبغضت سعيه ... لعوقه شىء عن الدوران

وقوله فى قصيدة منها [من الكامل] :

فى خطه من كل قلب شهوة ... حتى كأن مداده الأهواء

ولكل عين قرة فى قربه ... حتى كأن مغيبه الأقذاء

هذا البيت الذى جعله المقطع

لولم تكن من ذا الورى اللذ منك هو ... عقمت بمولد نسلها حواء

وكقوله فى آخر قصيدة [من الكامل] :

خلت البلاد من الغزالة ليلها ... فأعاضهاك الله كى لا تحزنا

* * *

هذا آخر المقابح والمعائب . وأول المحاسن والروائع والبدائع والقلائد والفرائد التى زاد فيها على من تقدم . وسبق جميع من تأخر

* * *

فمنها حسن المطالع

كقوله [من الطويل] :

فديناك من ربع وإن زدتنا كربا ... فإنك كنت الشرق للشمس والغربا

نزلنا عن الأكوار نمشى كرامة ... لمن بان عنه أن نلم به ركبا

وقوله [من الكامل] :

الرأى قبل شجاعة الشجعان ... هو أول . وهى المحل الثانى

وإذا هما اجتمعا لنفس مرة بلغت من العلياء كل مكان

وقوله [من الطويل] :

إذا كان مدح فالنسيب المقدم أكل فصيح قال شعراً متيم ؟

لحب ابن عبد الله أولى : فإنه به يبدأ الذكر الجميل ويختم

وقوله [من البسيط] :

أعلى الممالك ما يبنى على الأسل والطعن عند محبيهن كالقبل(١)

وقوله [من الوافر] :

فؤاد ما تسليه المدام وعمر مثل ما يهب اللئام

وقوله [من البسيط] :

أفاضل الناس أغراض لذا الزمن يخلو من الهم أخلاهم من الفطن

وقوله [من الكامل] :

اليوم عهدكم فأين الموعد هيهات ليس ليوم عهدكم غد ؟

الموت أقرب مخلباً من بينكم والعيش أبعد منكم لاتبعدوا

وقوله [من البسيط] :

المجد عوفي إذ عوفيت والكرم وزال عنك إلى أعدائك الألم

* * *

ومنها حسن الخروج والتخلص

كقوله [من البسيط] :

مرت بنا بين تربيها فقلت لها : من أين جانس هذا الشادن العربا(٢)

---

(١) الأسل : الرماح

(٢) الشادن : الظبي إذا طلع قرنه ، تقول : شدن الظبي شدونا

فاستضحكت ثم قالت : كالمغيث يرى ليث الشرى وهو من عجل إذا انتسبا

وقوله [من الطويل] :

وغيث ظننا تحته أن عامرا علا لم يمت أو فى السحاب له قبر

وقوله [من الطويل] :

وإلا فخانتنى القوافى ، وعاقنى عن ابن عبيد الله ضعف العزائم

إذا صلت لم أترك مصالا لصائل وإن قلت لم أترك مقالا لعالم

وقوله [من الطويل] :

نودعهم والبين فينا كأنه قنا ابن أبى الهيجاء فى قلب فيلق

وقوله [من الكامل] :

ومقانب بمقانب غادرتها أقوات وحش كن من أقواتها[1]

أقبلتها غرر البلاد كأنما أيدى بنى عمران فى جبهاتها

وقوله [من الكامل] :

حدق يذم من القواتل غيرها بدر بن عمار بن إسماعيلا

وقوله [من المتقارب] :

ولو كنت فى أسر غير الهوى ضمنت ضمـــان أبى وائل

فدى نفسه بضمان النضار وأعطى صدور القنا الذابل

* * *

---

(١) المقانب : جمع مقنب ، وهى الجماعة من الناس ، وأراد أنه لقى جيش الأعداء بجيش عظيم فغادر أعداءه طعمة للوحوش .

ومنها النسيب بالأعرابيات

كقوله [من البسيط] :

من الجآذر [١] في زي الأعاريب حمر الحلى والمطايا والجلابيب ؟
إن كنت تسأل شكا في معارفها فمن بلاك بتسهيد وتعذيب ؟
سوائر ربما سارت هوادجها منيعة بين مطعون ومضروب

أي : لكثرة الرغبة فيهن ، وشدة الذب عنهن ، والمحاربة دونهن

وربما وخدت أيدي المطي بها على نجيع من الفرسان مصبوب
كم زورة لي في الأعراب خافية أدهى وقد رقدوا من زورة الذيب
أزورهم وسواد الليل يشفع لي وأنثني وبياض الصبح يغري بي

قد وقع التنبيه على حسن هذا البيت في شرف لفظه ومعناه ، وجودة تقسيمه ، وكونه أمير شعره

قد وافقوا الوحش في سكنى مراتعها وخالفوها بتقويض وتطنيب
فؤاد كل محب في بيوتهم ومال كل أخيذ المال محروب
ما أوجه الحضر المستحسنات به كأوجه البدويات الرعابيب
حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفي البداوة حسن غير مجلوب
أفدي ظباء فلاة ما عرفن بها مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب
ولا برزن من الحمام مائلة أوراكهن صقيلات العراقيب
ومن هوى كل من ليست مموهة تركت لون مشيبي غير مخضوب
ومن هوى الصدق في قولي وعادته رغبت عن شعر في الوجه مكذوب

وناهيك بهذه الأبيات جزالة وحلاوة وحسن معادن .

وله طريقة ظريفة في وصف البدويات قد تفرد بحسنها وأجاد ما شاء فيها .
فمنها قوله [من البسيط] :

---

(١) الجآذر : جمع جؤذر ، وهو ولد البقرة الوحشية ، والعرب تشبه الحسان من النساء بالبقر لسعة عيونها

هام الفؤاد بأعرابية سكنت بيتاً من القلب لم تضرب به طنبا
مظلومة القد فى تشبيهه غصنا مظلومة الريق فى تشبيهه ضربا[1]

وقوله [من الكامل] :

إن الذين أقمت واحتملوا أيامهم لديارهم دول
الحسن يرحل كلما رحلوا معهم ، وينزل حيثما نزلوا
فى مقلتى رشأ تديرهما بدوية فتنت بها الحلل
تشكو المطاعم طول هجرتها وصدودها ومن الذى تصل

وصفها بقلة الطعم . وهى محمودة فى نساء العرب

ما أسأرت فى القعب من لبن تركته وهو المسك والعسل[2]
قالت ألا تصحو فقلت لها أعلمتنى أن الهوى ثمل

وقوله [من الطويل] :

ديار اللواتى دارهن عزيزة بطول القنا يحفظن لا بالتمائم
حسان التثنى ينقش الوشى مثله إذا مسن فى أجسادهن النواعم
ويبسمن عن در تقلدن مثله كأن التراقى وشحت بالمباسم

ومنها حسن التصرف فى سائر الغزل

كقوله [من الكامل] :

قد كان يمنعنى الحياء من البكا فالآن يمنعه البكا أن يمنعا
حتى كأن لكل عظم رنة فى جلده ولكل عرق مدمعا

---

(١) الضرب — بفتح الضاد والراء — الشهد

(٢) السؤر — بضم فسكون — ما فضل من الشرب فى الاناء ، وأسأر : أبقى فى الاناء فضلا من ماء

سفرت وبرقعها الحياء بصفرة ستَرت محاسنها ولم تك برقعا

فكأنها والدمع يقطر فوقها ذهب بسمطى لؤلؤ قد رصعا

كشفت ثلاث ذوائب من شعرها فى ليلة فأرت ليالى أربعا

واستقبلت قمر السماء بوجهها فأرتنى القمرين فى وقت معا

وهى مما يتغنى به لرشاقتها وبلوغها كل مبلغ من حسن اللفظ وجودة المعنى ، واستحكام الصنعة

وكقوله [من الوافر] :

أيدرى الربع أى دم أراقا ؟ وأى قلوب هذا الركب شاقا ؟

لنا ولأهله أبداً قلوب تلاقى فى جسوم ما تلاقى

معناه ينظر إلى قول ابن المعتز [من الرجز] :

إنا على البعاد والتفرق لنلتقى بالذكر إن لم نلتق

ومنها :

فليت هوى الأحبة كان عدلا فحمل كل قلب ما أطاقا

ومنها :

وقد أخذ التمام البدر فيهم وأعطانى من السقم المحاقا

وبين الفرع والقدمين نور يقود بلا أزمتها النياقا

وطرف إن سقى العشاق كأساً بها نقص سقانيها دهاقا(١)

وخصر تثبت الأحداق فيه كأن عليه من حدق نطاقا

وقوله [من المنسرح] :

كأنما قدها إذا انفتلت سكران من خمر طرفها ثمل

يجذبها تحت خصرها عجز كأنه من فراقها وجل

---

(١) دهاقا : مملوءة

وقوله [من الكامل] :

مثلت عينك فى حشاى جراحة فتشابها كلتاهما نجلاء
نفذت على السابرى ، وربما تندق فيه الصعدة السمراء

وكقوله [من الوافر] :

كأن العيس كانت فوق جفنى مناخات فلما ثرن سالا
لبسن الوشى لا متجملات ولكن كى يصن به الجمالا
وضفرن الغدائر لا لحسن ولكن خفن فى الشعر الضلالا

* * *

ومنها حسن التشبيه بغير أداة التشبيه

كقوله [من الوافر] :

بدت قمراً ، ومالت غصن بان وفاحت عنبراً ، ورنت غزالا[١]

وقوله [من البسيط] :

ترنو إلى بعين الظبى مجهشة وتمسح الطل فوق الورد بالعنم[٢]

وقوله [من الكامل] :

قمراً ترى وسحابتين بموضع من وجهه ويمينه وشماله

وقوله [من البسيط] :

أعارنى سقم عينيه وحملنى من الهوى ثقل ما تحوى مآزره

وقوله [من الوافر] :

عرفت نوائب الحدثان حتى لو انتسبت لكنت لها نقيبا

---

(١) رنت : نظرت

(٢) العنم — بفتح العين والنون جميعا — شجر حجازى له نبت أحمر ، والعرب تشبه به أصابع الحسان

وقوله [من الكامل] :

فأتيت معتزما ولا أسد ومضيت منهزما ولا وعل

وقوله فى وصف الخيل [من المتقارب] :

خرجنا من النقع فى عارض ومن عرق الركض فى وابل

وقوله [من الخفيف] :

وجياد يدخلن فى الحرب أعرا ء ويخرجن من دم فى جلال(١)

واستعار الحديد لونا وألقى لونه فى ذوائب الأطفال

* * *

ومنها الإبداع فى سائر التشبيهات والتمثيلات

كقوله [من الطويل] :

وإن نهارى ليلة مدلهمة على مقلة من فقدكم فى غياهب

بعيدة ما بين الجفون كأنما عقدتم أعالى كل هدب بحاجب

ذكر ابن جنى أنه مثل قول بشار [من الوافر] :

جفت عينى عن التغميض حتى كأن جفونها عنها قصار

وذكر القاضى أنه مأخوذ من قول الطرمى فى رطاناته [من الطويل

ورأسى مرفوع إلى النجم كأنما قفاى إلى صلبى بخيط مخيط

وقوله [من الطويل] :

كأن رقيباً منك سد مسامعى عن العذل حتى ليس يدخلها العذل

كأن سهاد العين يعشق مقلتى فبينهما فى كل هجر لنا وصل

وقوله [من الطويل] :

رأيت الحميا فى الزجاج بكفه فشبهتها بالشمس فى البدر فى البحر

(١) الجلال : جمع جل ، وهو للفرس كالبرذعة للحمار

وقوله فى الحمى [من الوافر] :

وزائرتى كأن بها حياء فليس تزور إلا بالظلام

بذلت لها المطارف والحشايا فعافتها وباتت فى عظامى

وقوله فى وصف الظبى [من الرجز] :

أغناه حسن الجيد عن لبس الحلى وعادة العرى عن التفضل

كأنه مضمخ بصندل

وقوله فى سرعه الأوبة وتقليل اللبث [من الوافر] :

وما أنا غير سهم فى هواء يعود ولم يجد فيه امتساكا

قال ابن جنى : قد اختلف أهل النظر فى هذا الموضع ، فقال قوم : إن السهم والحجر ونحوهما إذا رمى به صعدا فتناهى صعوده كانت له فى آخر ذلك لبثة ما ، ثم يتصوب منحدرا . وقال آخرون : لا لبثة له هناك ، وإنما أول وقت انحداره آخر وقت صعوده .

وقوله — وهو أحسن ما قيل فى وصف محنة نهكت صاحبها ، واشتدت به ، ثم عاد إلى حال السلامة وقد هذبته تلك الحال وزادته صفاء وسهولة [من الوافر]

وربتما شفيت غليل صدرى بسير أو مقام أو حسام

وضاقت خطة فخرجت منها خروج الخمر من نسج الفدام(١)

وقوله وهو مما لم يسبق إليه [من الطويل] :

كريم نفضت الناس لما لقيته كأنهم ما جف من زاد قادم

وكاد سرورى لا يفى بندامتى على تركه فى عمرى المتقادم

وقوله وهو من بدائعه [من الوافر] :

رضوا بك كالرضا بالشيب قسراً وقد وخط النواصى والفروعا

(١) الفدام — بكسر الفاء ، بزنة الكتاب — المصفاة

وقوله فى وصف الشعر [من البسيط] :

إذا خلعت على عرض له حللا وجدتها منه فى أبهى من الحلل

بذى الغباوة من إنشادها ضرر كما تضر رياح الورد بالجعل

وذلك أن الجعل إذا طرح عليه الورد غشى عليه .

* * *

ومنها التمثيل بما هو من جنس صناعته

كقوله [من البسيط] :

وإنما نحن فى جيل سواسية شر على الحر من سقم على البدن

حولى بكل مكان منهم خلق تخطى إذا جئت فى استفهامها بمن

« من » إنما يستفهم بها عمن يعقل ، يقول : هؤلاء كالبهائم ، فقولك لهم « من أنتم » خطأ . إنما ينبغى أن يقال لهم « ما أنتم » لأن موضع « ما » لما لا يعقل . ويحكى أن جريرا لما قال [من البسيط] :

يا حبذا جبل الريان من جبل وحبذا ساكن الريان من كانا

قال الفرزدق : ولو كان ساكنه قروداً ؟ فقال له جرير : لو أردت هذا لقلت ما كانا ولم أقل من كانا .

وكقوله [من البسيط] :

نتاج رأيك فى وقت على عجل كلفظ حرف وعاه سامع فهم

وقوله [من البسيط] :

من اقتضى بسوى الهندى حاجته أجاب كل سؤال عن هل بلم

وقوله [من الكامل] :

أمضى إرادته فسوف له قد واستقرب الأقصى فثم له هنا

« سوف » للاستقبال ، و « قد » موضوعة للمضى ومقاربة الحال ، يقول :

إذا نوى أمراً فكأنما يسابق نيته . وقوله [من الكامل] :

دون التعانق ناحلين كشكلتي نصب أدقهما وضم الشاكل

وقوله [من الوافر] :

ولولا كونكم فى الناس كانوا هراء كالكلام بلا معان

وقوله [من الطويل] :

قشير وبلعجلان فيها خفيـــة كراءين فى ألفاظ ألثغ ناطق (١)

وقوله [من الطويل] :

إذا كان ما تنويه فعلا مضارعاً مضى قبل أن تلقى عليه الجوازم

المضارع ما كان فى أوله إحدى الزوائد الأربع ، مثل : أقوم ، ونقوم ، وتقوم ، ويقوم . يقول : إذا نويت فعلا أوقعته قبل فوته ، وقبل أن يقال لم يفعل ، وأن يفعل ، وقوله [من الوافر] :

وكان ابنا عدو كاثراه له ياءى حروف أنيسيان

« أنيسيان » تصغير إنسان وتحقيره ، وإنسان عدد حروفه خمسة ، وهو اسم مكبر . فإذا صغرته زدت عليه ياءين فزادت حروفه ونقص معناه ، فكذلك إذا كان لعدوه ابنان فكاثره بهما ، فيكونان زائدين فى عدده ولكن ناقصين ، لسقوطهما وتخلفهما

* * *

ومنها المدح الموجه

كالثوب له وجهان ما منهما إلا حسن . كقوله [من الطويل] :

نهبت من الأعمار ما لو حويته لهنئت الدنيا بأنك خالد

(١) أراد بقوله بلعجلان بنو العجلان ، فحذف كما حذف الشاعر فى قوله :

* غداة طغت علماء بكر بن وائل *

وقد مضى ذكر شيء من ذلك فى حواشينا على هذه الترجمة .

قال ابن جني : لو لم يمدح أبو الطيب سيف الدولة إلا بهذا البيت وحده لكان قد بقي فيه ما لا يخلقه الزمان ، وهذا هو المدح الموجه ، لأنه بنى البيت على ذكر كثرة ما استباحه من أعمار أعدائه ، ثم تلقاه من آخر البيت بذكر سرور الدنيا ببقائه ، واتصال أيامه . وكقوله [من البسيط] :

عمر العدو إذا لاقاه في رهج أقل من عمر ما يحوي إذا وهبا
مال كأن غراب البين يرقبه فكلما قيل هذا مجتد نعبا

وقوله [من المنسرح] :

تشرق تيجانه بغرته إشراق ألفاظه بمعناها

وقوله [من المنسرح] :

تشرق أعراضهم وأوجههم كأنها في نفوسهم شيم

وقوله [من الطويل] :

إلى كم ترد الرسل فيما أتوا له كأنهم فيما وهبت ملام

وقوله [من الطويل] :

يخيل لى أن البلاد مسامعي وأنى فيها ما تقول العواذل

وقوله [من البسيط] :

كأن ألسنهم في النطق قد جعلت على رماحهم في الطعن خرصانا

* * *

ومنها حسن التصرف في مدح سيف الدولة بجنس السيفية

كقوله [من المتقارب] :

لقد رفع الله من دولة لها منك يا سيفها منصل

وقوله [من الكامل] :

لولا سمي سيوفه ومضاؤه لما سللن لكن كالأجفان

وقوله [من الطويل] :

عزاءك سيف الدولة المقتدى به فإنك نصل والشدائد للنصل

وقوله [من البسيط] :

يسمى الحسام وليست من مشابهة وكيف يشتبه المخدوم والخدم
كل السيوف إذا طال الضراب بها يمسها غير سيف الدولة السأم

وقوله [من الطويل] :

تهاب سيوف الهند وهي حدائد فكيف إذا كانت نزارية عربا

وقوله [من الطويل] :

تحير في سيف : ربيعة أصله وطابعه الرحمن ، والمجد صاقل

وقوله [من الخفيف] :

قلد الله دولة سيفها أنـ ـت حساما بالمكرمات محلى
فإذا اهتز للندى كان بحراً وإذا اهتز للعدا كان نصلا

وقوله [من الطويل] :

وأنت حسام الملك والله ضارب وأنت لواء الدين والله عاقد

وقوله [من الطويل] :

لقد سل سيف الدولة المجد معلما فلا المجد مخفيه ولا الضرب ثالمه
على عاتق الملك الأغر نجاده وفي يد جبار السموات قائمه
وإن الذى سمى عليا لمنصف وإن الذى سماه سيفا لظالمه
وما كل سيف يقطع الهام حده وتقطع لزبات الزمان مكارمه

وقوله [من الكامل] :

إن الخليفة لم يسمك سيفه حتى بلاك فكنت عين الصارم
وإذا تتوج كنت درة تاجه وإذا تختم كنت فص الخاتم

وقوله [من الكامل] :

من للسيوف بأن تكون سميها في أصله وفرنده ووفائه
طبع الحديد فكان من أجناسه وعلى المطبوع من آبائه

* * *

ومنها الإبداع في سائر مدائحه

كقوله [من الكامل] :

ملك سنان قناته وبنانه يتباريان دما وعرفا ساكبا
يستصغر الخطر الكبير لوفده ويظن دجلة ليس تكفي شاربا
كالبدر من حيث التفت رأيته يهدي إلى عينيك نوراً ثاقبا
كالشمس في كبد السماء وضوؤها يغشى البلاد مشارقا ومغاربا
كالبحر يقذف للقريب جواهرا جودا ، ويبعث للبعيد سحائبا

وقوله [من الكامل] :

ليس التعجب من مواهب ماله بل من سلامتها إلى أوقاتها
عجباً له حفظ العنان بأنمل ماحفظها الأشياء من عاداتها
لو مر يركض في سطور كتابه أحصى بحافر مهره ميماتها
كرم تبين في كلامك مائلا ويبين عتق الخيل في أصواتها
أعيا زوالك عن محل نلته لا تخرج الأقمار من هالاتها

فيه مدح ، ومثل مضروب ، وتشبيه نادر

ذكر الأنام لنا فكان قصيدة أنت البديع الفرد من أبياتها

وهذا البديع الفرد من أبيات هذه القصيدة ، وكقوله [من الطويل] :

وما زلت حتى قادني الشوق نحوه يسايرني في كل ركب له ذكر

واستكبر الأخبار قبل لقائه فلما التقينا صغر الخبر الخبر

هذا ضد قولهم « تسمع بالمعيدى خير من أن تراه »

أزالت بك الأيام عتبي كأنما بنوها لها ذنب وأنت لها عذر

وكقوله [من الطويل] :

ألا أيها المال الذى قد أباده تعز فهذا فعله بالكتائب

لعلك فى وقت شغلت فؤاده عن الجود أو أكثرت جيش محارب

وقوله [من الخفيف] :

بعثوا الرعب فى قلوب الأعادى فكأن القتال قبل التلاقى

وتكاد الظبا لما عودوها تنتضى نفسها إلى الأعناق

كل ذمر يزيد فى الموت حسناً كبدور تمامها فى المحاق

كرم خشن الجوانب منهم فهو كالماء فى الشفار الرقاق

ومغال إذا ادعاها سواهم لزمته جناية السراق

وكقوله [من الخفيف] :

خير أعضائنا الرءوس ولكن فضلتها بقصدك الأقدام

وكقوله [من المنسرح] :

قوم بلوغ الغلام عندهم طعن نحور الكماة لا الحلم

كأنما يولد الندى معهم لا صغر عاذر ولا هرم

إذا تولوا عداوة كشفوا وإن تولوا صنيعة كتموا

تظن من فقدك اعتدادهم بأنهم أنعموا وما علموا

إن برقوا فالحتوف حاضرة أو نطقوا فالصواب والحكم

أو شهدوا الحرب لاقحاً أخذوا من مهج الدارعين ما احتكموا

أو حلفوا بالغموس واجتهدوا فقولهم «خاب سائلى» القسم (١)

---

(١) « خاب سائلي » هذه جملة يقولها أحدهم عند ما يحلف ، مثل قول أحدنا « برئت من كذا » .

أو ركبوا الخيل غير مسرجة فإن أفخاذهم لها حزم
تشرق أعراضهم وأوجههم كأنها في نفوسهم شيم
أعيذكم من صروف دهركم فانه في الكرام متهم

وكقوله [من المنسرح]:

الناس مالم يروك أشباه والدهر لفظ وأنت معناه
والجود عين وأنت ناظره والبأس باع وأنت يمناه
يا راحلا كل من يودعه مودع دينه ودنياه
إن كان فيما تراه من كرم فيك مزيد فزادك الله

وكقوله [من البسيط]:

تمشي الكرام على آثار غيرهم وأنت تخلق ما تأتي وتبتدع
من كان فوق محل الشمس موضعه فليس يرفعه شيء ولا يضع

وكقوله [من الطويل]

فلما رأوه وحده دون جيشه دروا أن كل العالمين فضول

وكقوله [من الطويل]:

وأوردهم صدر الحصان وسيفه فتى بأسه مثل العطاء جزيل
جواد على العلات بالمال كله ولكنه بالدارعين بخيل

وكقوله [من الطويل]:

أرى كل ذي ملك إليك مصيره كأنك بحر والملوك جداول
إذا أمطرت منهم ومنك سحابة فوابلهم طل وطلك وابل

وقوله [من الطويل]:

ودانت له الدنيا فأصبح جالساً وأيامه فيما يريد قيام
وكل أناس يتبعون إمامهم وأنت لأهل المكرمات إمام

وربّ جواب عن كتاب بعثته وعنوانه للناظرين قتام

وكقوله [من الطويل] :

هم المحسنون الكرّ فى حومة الوغى وأحسن منهم كرهم فى المكارم

ولولا احتقار الأسد شبهتها بهم ولكنها معدودة فى البهائم

وكقوله [من المنسرح] :

أغرّ أعداؤه إذا سلموا بالهرب استكثروا الذى فعلوا

إنك من معشر إذا وهبوا ما دون أعمارهم فقد بخلوا

كتيبة لست ربها نفل وبلدة لست حليها عطل (١)

وكقوله [من المنسرح] :

لو كفر العالمون نعمته لما عدت نفسه سجاياها

كالشمس لا تبتغى بما صنعت منفعة عندهم ولا جاها

وكقوله [من الطويل] :

فجاءت بنا إنسان عين زمانه وخلت بياضاً خلفها ومآقيا

وهذا أحسن ما يمدح به ملك أسود . ولا نهاية لحسنه ، وشرف معناه ، وجودة تشبيهه وتمثيله :

ترفع عن عون المكارم قدره فما يفعل الفعلات إلا عذاريا (٢)

أبا كل طيب ، لا أبا المسك وحده ، وكل سحاب لا أخص الغواديا

يدل بمعنى واحد كل فاخر وقد جمع الرحمن فيك المعانيا

---

(١) النفل — بفتحتين — هنا الغنيمة ، والعطل : الخالية من الحلي

(٢) العون : النصف من النساء ، وهى التى سبق لها التزوج ، وأراد هنا المكرمة التى لها مثال ونظير ، والعذارى : جمع عذراء ، وأصله البكر من النساء ، وأراد هنا المكرمة التى لا نظير لها ولم يتقدمه أحد بمثلها .

ألم فيه بقول أبي نواس [من المجتث] :

كأنمــا أنت شيء حوى جميع المعاني

* * *

ومنها مخاطبة الممدوح من الملوك

بمثل مخاطبة المحبوب والصديق ، مع الإحسان والإبداع

وهو مذهب له : تفرد به ، واستكثر من سلوكه ، اقتدارا منه ، وتبحراً في الألفاظ والمعاني ، ورفعا لنفسه عن درجة الشعراء ، وتدريجا لها إلى مماثلة الملوك ، في مثل قوله لكافور [من الطويل] :

وما أنا بالباغي على الحب رشوة ضعيف هوى يبغى عليه ثواب
وما شئت إلا أن أدل عواذلي على أن رأيي في هواك صواب
وأعلم قوماً خالفوني فشرقوا وغربت ، أني قد ظفرت وخابوا
إذا نلت منك الود فالمال هين وكل الذي فوق التراب تراب

وقوله له [وقد أهداه مهرا أسود] [من الطويل] :

فلو لم تكن في مصر ماسرت نحوها بقلب المشوق المستهام المتيم

وقوله لابن العميد [يودعه] [من الطويل] :

تفضلت الأيام بالجمع بيننا فلما حمدنا لم تدمنا على الحمد
فجد لى بقلب إن رحلت فإنني مخلف قلبي عند من فضله عندي

وقوله لعضد الدولة [من الوافر] :

أروح وقد ختمت على فؤادي بحبك أن يحل به سواكا
فلو أني استطعت حفظت طرفي فلم أبصر به حتى أراكا

من قصيدة تشتمل على أبيات من هذا الطراز ، سأكتبها في آخر الباب .

وكقوله لسيف الدولة [من البسيط] :

مالى أكتم حباً قد برى جسدى ... وتدعى حب سيف الدولة الأمم ؟

إن كان يجمعنا حب لغرته ... فليت أنا بقدر الحب نقتسم

يا أعدل الناس إلا فى معاملتى ... فيك الخصام ، وأنت الخصم والحكم

إذا رأيت نيوب الليث بارزة ... فلا تظنن أن الليث يبتسم

أعيذها نظرات منك صادقة ... أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

وما انتفاع أخى الدنيا بناظره ... إذا استوت عنده الأنوار والظلم

يامن يعز علينا ان نفارقهم ... وجداننا كل شىء بعدكم عدم

ما كان أخلقنا منكم بتكرمة ... لو أن أمركم من أمرنا أمم

إن كان سركم ما قال حاسدنا ... فما لجرح — إذا أرضاكم — ألم

وبيننا ، لو رعيتم ذاك ، معرفة ... إن المعارف فى أهل النهى ذمم

كم تطلبون لنا عيباً فيعجزكم ... ويكره الله ما تأتون والكرم

ما أبعد العيب والنقصان من شرفى ... أنا الثريا وذان الشيب والهرم

ليت الغمام الذى عندى صواعقه ... يزيلهن إلى من عنده الديم

أرى النوى تقتضينى كل مرحلة ... لا تستقل بها الوخادة الرسم

لئن تركنا ضميراً عن ميامننا ... ليحدثن لمن ودعتهم ندم

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا ... ألا تفارقهم فالراحلون هم

شر البلاد بلاد لاصديق بها ... وشر ما يكسب الإنسان مايصم

وشر ما قنصته راحتى قنص ... شهب البزاة سواء فيه والرخم

وهى — على براعتها ، واستقلال أكثر أبياتها بأنفسها — تكاد تدخل فى باب إساءة الأدب بالأدب ، وقد تقدم ذكره .

* * *

ومنها استعمال ألفاظ الغزل والنسيب في أوصاف الحرب والجد

وهو أيضاً مما لم يسبق إليه ، وتفرد به ، وأظهر فيه الحذق بحسن النقل ، وأعرب عن جودة التصرف والتلعب بالكلام . كقوله [من البسيط] :

أعلى الممالك ما يبنى على الأسل   والطعن عند محبيهن كالقبل

وقوله ، وهو من فرائده [من الطويل] :

شجاع كأن الحرب عاشقة له   إذا زارها فدته بالخيل والرجل

وكقوله [من البسيط] :

وكم رجال بلا أرض لكثرتهم   تركت جمعهم أرضاً بلا رجل

ما زال طرفك يجرى فى دمائهم   حتى مشى بك مشى الشارب الثمل

وكقوله [من المنسرح] :

والطعن شزر والأرض واجفة   كأنما فى فؤادها وهل

قد صبغت خدها الدماء كما   يصبغ خد الخريدة الخجل

والخيل تبكى جلودها عرقا   بأدمع ما تسحها مقل

وكقوله [من الطويل] :

تعود أن لا تقضم الحب خيله   إذا الهام لم ترفع جنوب العلائق

ولا ترد الغدران إلا وماؤها   من الدم كالريحان تحت الشقائق

وكقوله [من الكامل] :

فأتتك دامية الأظل كأنما   حذيت قوائمها العقيق الأحمرا

وإذا الحمائل ما يخدن بنفنف   إلا شققن عليه برداً أخضرا

وكقوله [من الكامل] :

قد سودت شجر الجبال شعورهم   فكأن فيه مسفة الغربان

وجرى على الورق النجيع القانى فكأنه النارنج فى الأغصان

وكقوله [من الوافر] :

حمى أطراف فارس شمرى يحض على التباقى فى التفانى
بضرب هاج أطراب المنايا سوى ضرب المثالث والمثانى
كأن دم الجماجم فى العناصى كسا البلدان ريش الحيقطان [١]
فلو طرحت قلوب العشق فيها لما خافت من الحدق الحسان [٢]

وكقوله [من الطويل] :

كرعن بسبت فى إناء من الورد [٣]

* * *

ومنها حسن التقسيم

حكى أبو القاسم الآمدى فى كتاب الموازنة بين شعرى الطائيين ، قال : سمع بعض الشيوخ من نقدة الشعر قول العباس بن الأحنف [من الطويل] :

وصالكم هجر ، وحبكم قلى وعطفكم صد ، وسلمكم حرب
وأنتم بحمد الله فيكم فظاظة وكل ذلول من مراكبكم صعب

فقال : والله هذا أحسن من تقسيمات إقليدس ، وقول أبى الطيب المتنبى فى هذا الفن أولى بهذا الوصف [من البسيط] :

ضاق الزمان ووجه الأرض عن ملك ملء الزمان وملء السهل والجبل

---

(١) العناصى : جمع عنصوة ، وهى الشعر المتفرق فى جوانب الرأس ، والحيقطان : ذكر الدراج وريشه ملون .

(٢) يريد بقلوب العشق قلوب أهله .

(٣) السبت ـ بكسر السين وسكون الباء ـ جلود تدبغ بالقرظ .

فنحن في جذل . والروم في وجل . والبر في شغل . والبحر في خجل

وكقوله [من البسيط]

الدهر معتذر ، والسيف منتظر وأرضهم لك مصطاف ومرتبع

للسبي ما نكحوا . والقتل ما ولدوا . والنهب ما جمعوا . والنار ما زرعوا !

وقوله [من الطويل] :

فلم يخل من نصر له من له يد ولم يخل من شكر له من له فم

ولم يخل من أسمائه عود منبر ولم يخل دينار ولم يخل درهم

وقوله [من الوافر] :

قليل عائدى ، سقم فؤادى ، كثير حاسدى ، صعب مرامى

عليـــل الجسم ممتنع القيام شديد السكر من غير المدام

وقوله [من المتقارب] :

بمصر ملوك لهم ماله ولكنهم ما لهم همه

فأجود من جودهم بخله وأحمـــد من حمدهم ذمه

وأشرف من عيشهم موته وأنفع من وجدهم عدمه

وقوله [من البسيط] :

لم نفتقد بك من مزن سوى لثق ولا من البحر غير الريح والسفن

ولا من الليث إلا قبح منظره ومن سواه سوى ما ليس بالحسن

وقوله [من الطويل] :

يجل عن التشبيه : لا الكف لجة ولا هو ضرغام ، ولا الرأى مخذم

ولا جرحه يؤسى ، ولا غوره يرى ولا حـــده ينبو ولا يتثلم

محلك مقصود ، وشانيك مفحم ومثلك مفقود ، ونيلك خضرم

وقوله [من الطويل] :

أذم إلى هـــذا الزمان أهيله فأعلمهم فدم ، وأحزمهم وغد
وأكرمهم كلب ، وأبصرهم عم ، وأسهدهم فهد ، وأشجعهم قرد

وقوله [من الكامل] :

وغناك مسألة ، وطيشك نفخة ورضاك فيشلة ، وربك درهم

وقوله [من الخفيف] :

عـــربى لسانه ، فلسفى رأيه ، فارسيـــة أعيـاده

وقوله [من الطويل] :

سقتنى بهـا القطربلى مليحة على كاذب من وعدها ضوء صادق
سهاد لأجفان ، وشمس لناظر ، وسقم لأبدان ، ومسك لناشق
وأغيد يهوى نفسه كل عاقل عفيف ، ويهوى جسمه كل فاسق

ومنها حسن سياقة الأعداد

كقوله [من الطويل] :

على ذا مضى الناس : اجتماع وفرقة وميت ومولود ، وقال ووامق

وقوله [من الطويل] :

ألا أيها السيف الذى ليس مغمداً ولا فيه مرتاب ، ولا منه عاصم
هنيئاً لضرب الهام والمجد والعلا وراجيك والإسلام أنك سالم

وقوله [من الكامل] :

لا يستحى أحـــد يقال له فضلوك آل بويه أو فضلوا

قدروا عفوا . وعدوا وفوا . سئلوا أغنوا . علوا أعلوا . ولوا عدلوا

وقوله [من قصيدة يمدح بها سيف الدولة] [من الطويل] :

ورب جواب عن كتاب بعثته وعنوانه للناظرين قتام
حروف هجاء الناس فيه ثلاثة : جواد . ورمح ذابل . وحسام

لما سمى الجيش جوابا جعل حروفه جواداً ورمحاً وحساماً . اقتداراً واتساعاً في الصنعة . وقوله [من البسيط] :

ومرهف سرت بين الجحفلين به حتى ضربت وموج الموت يلتطم
فالخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

قال ابن جنى : قد سبق الناس إلى ذكر ما جمعه في هذا البيت ، ولكن لم يجتمع مثله في بيت ما علمت ، وقد قال البحترى [من الخفيف] :

اطلبا ثالثاً سواى فإنى رابع العيس والدجى والبيد

وهذا اللفظ عذب . ولكن ليس فيه جميع ما في بيت المتنبي . وقوله [من البسيط] :

أنت الجواد بلا من ولا كدر ولا مطال ولا وعد ولا مذل (١)

وقوله [من المنسرح] :

في حر شوق إلى ترشفها ينفصل الصبر حين يتصل
فالثغر والفجر والمخلخل والـ ـمعصم دائي : والفاحم الرجل (٢)

وقوله [من الطويل] :

ولكن بالفسطاط بحراً أزرته حياتي ونصحي والهوى والقوافيا

وقوله [من الطويل] :

أميناً وإخلافاً وغدراً وخسة وجبناً . أشخصاً لحت لى أم مخازيا؟

(١) المذل : الضجر والقلق .
(٢) الفاحم الرجل : الشعر المسترسل

ومنها إرسال المثل في أنصاف الأبيات

كقوله [من الطويل] :

* مصائب قوم عند قوم فوائد *

وقوله [من الطويل] :

* ومن قصد البحر استقل السواقيا *

وقوله [من الطويل] :

* وخير جليس في الزمان كتاب *

وقوله [من البسيط] :

* إن المعارف في أهل النهى ذمم *

وقوله [من البسيط] :

* وربما صحت الأجسام بالعلل *

وقوله [من الوافر] :

* وفي الماضي لمن بقي اعتبار *

وقوله [من المتقارب] :

* وتأبى الطباع على الناقل *

وقوله [من المتقارب] :

* ومنفعة الغوث قبل العطب *

وقوله [من الكامل] :

* هيهات تكتم في الظلام مشاعل *

وقوله [من المنسرح] :

* ومخطئ من رميه القمر *

وقوله [من الوافر] :

* وما خير الحياة بلا سرور *

وقوله [من البسيط] :

* بجبهة العير يفدى حافر الفرس *

وقوله [من المتقارب] :

* ولا رأى فى الحب للعاقل *

وقوله [من الطويل] :

* ولكن طبع النفس للنفس قائد *

وقوله [من البسيط] :

* وليس يأكل إلا الميت الضبع *

وقوله [من الخفيف] :

* كل ما يمنح الشريف الشريف *

وقوله [من المنسرح] :

* والجوع يرضى الأسود بالجيف *

وقوله [من المتقارب] :

* ومن فرح النفس ما يقتل *

وقوله [من الطويل] :

* ويستصحب الإنسان من لا يلائمه *

وقوله [من البسيط] :

* إن النفيس غريب حيثما كانا *

وقوله [من الكامل] :

* فمن الرديف وقد ركبت غضنفراً *

وقوله [من الطويل] :

* إذا عظم المطلوب قل المساعد *

وقوله [من البسيط] :

* ومن يسد طريق العارض الهطل *

وقوله [من الوافر] :

* وأدنى الشرك فى نسب جوار

وقوله [من الطويل] :

* وفى عنق الحسناء يستحسن العقد *

وقوله [من الطويل] :

* لا تخرج الأقمار من هالاتها *

وقوله [من الرجز] :

* إن النفوس عدد الآجال *

وقوله [من الطويل] :

* ولكن صدم الشر بالشر أحزم *

وقوله [من البسيط] :

* أنا الغريق فما خوفى من البلل *

وقوله [من الطويل] :

* أشد من السقم الذى أذهب السقما *

وقوله [من الوافر] :

* فإن الرفق بالجانى عتاب *

وقوله [من الكامل] :

* إن القليل من الحبيب كثير *

وقوله [من الطويل] :

* بغيض إلى الجاهل المتعاقل *

وقوله [من البسيط] :

* وليس كل ذوات المخلب السبع *

وقوله [من البسيط] :

* وللسيوف كما للنـــاس آجال *

وقوله [من البسيط] :

* فى طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل

وقوله [من الوافر] :

* فأول قرح الخيــــل المهار *

وقوله [من البسيط] :

* والبر أوسع والدنيـــا لمن غلبا

وقوله [من البسيط] :

* ليس التكحل فى العينين كالكحل

وقوله [من الكامل] :

* ويبين عتق الخيــــل فى أصواتها *

* * *

ومنها إرسال المثالين فى مصراعى البيت الواحد

كقوله [من الطويل] :

وكل امرئ يولى الجميل محبب وكل مكان ينبت العز طيب

وقوله [من المنسرح] :

فى سعة الخافقين مضطرب وفى بلاد من أختها بدل

وقوله [من الكامل] :

الحب ما منع الكلام الألسنا   وألذ شكوى عاشق ما أعلنا

وقوله [من الخفيف] :

ذل من يغبط الذليل بعيش   رب عيش أخف منه الحمام
من يهن يسهل الهوان عليه   ما لجرح بميت إيلام

وقوله [من الطويل] :

كفى بك داء أن ترى الموت شافياً   وحسب المنايا أن يكن أمانيا

وقوله [من البسيط] :

أفاضل الناس أغراض لذا الزمن   يخلو من الهم أخلاهم من الفطن

وقوله [من الطويل] :

وأتعب من ناداك من لا تجيبه   وأغيظ من عاداك من لا تشاكل

وقوله [من البسيط] :

لا تشتر العبد إلا والعصا معه   إن العبيد لأنجاس مناكيد

وقوله [من الطويل] :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته   وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا
ووضع الندى في موضع السيف بالعلا   مضر كوضع السيف في موضع الندى
وما قتل الأحرار كالعفو عنهم   ومن لك بالحر الذي يحفظ اليدا
وقيدت نفسي في ذراك محبة   ومن وجد الإحسان قيداً تقيدا

ومنها إرسال المثل والاستملاء والموعظة

وشكوى الدهر والدنيا والناس .

وما يجرى مجراها .

كقوله [من الطويل] :

وما الجمع بين الماء والنار فى يدى   بأصعب من أن أجمع الجد والفهما

وقوله [من الكامل] :

يخفى العـــداوة وهى غير خفية   نظر العدو بما أسر يبوح

وقوله [من المنسرح]

والأمر لله ، رب مجتهد   ما خاب إلا لأنه جاهد

وقوله [من الطويل] :

إليك فإنى لست ممن إذا اتقى   عضاض الأفاعى نام فوق العقارب

وقوله [من الكامل] :

خير الطيور على القصور ، وشرها   يأوى الخراب ويسكن الناووسا

وقوله [من البسيط

ليس الجمال لوجه صح مارنه   أنف العزيز بقطع العز يجتدع

وقوله [من الوافر] :

وليس يصح فى الأفهام شىء   إذا احتاج النهار إلى دليل

قال ابن جنى : هذا كما يقول أهل الجدل « من شك فى المشاهدات فليس بكامل العقل » .

وقوله [من الطويل] :

وقد يتزيا بالهوى غير أهله   ويستصحب الإنسان من لا يلائمه

وقوله [من الطويل] :

وما تنفع الخيل الكرام ولا القنا إذا لم يكن فوق الكرام كرام

وقوله [من البسيط] :

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجرى الرياح بما لا تشتهى السفن

وقوله [من الكامل] :

وأحب أنى لو هويت فراقكم فارقته والدهر أخبث صاحب

وقوله [من الكامل] :

من خص بالذم الفراق فإننى من لا يرى فى الدهر شيئا يحمد

وقوله [من الطويل] :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدواً له ما من صداقته بد

وقوله [من الخفيف] :

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت فى مرادها الأجسام

وقوله [من الكامل] :

تلف الذى اتخذ الشجاعة جنة وعظ الذى اتخذ الفرار خليلا

وقوله [من الطويل] :

فإن يكن الفعل الذى ساء واحداً فأفعاله اللائى سررن ألوف

وقوله [من الكامل] :

وإذا خفيت على الغبي فعاذر أن لا ترانى مقلة عمياء

وقوله [من البسيط] :

إن كنت ترضى بأن يعطوا الجزى بذلوا منهار ضالك ، ومن للعور بالحول ؟ !

وقوله [من الوافر] :

فآجرك الإله على مريض بعثت به إلى عيسى طبيبا

وقوله [من الوافر] :

إذا أتت الإساءة من لئيم ولم ألم المسيء فمن ألوم

وقوله [من الكامل] :

وإذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني فاضل

وقوله [من المتقارب] :

إذا ما قدرت على نطقة فإني على تركها أقدر

وقوله [من الخفيف] :

واحتمال الأذى ورؤية جاني ـه غذاء تضوى به الأجسام

وقوله [من الكامل] :

وتوهموا اللعب الوغى والطعن في الـ ـهيجاء غير الطعن في الميدان

وقوله [من الخفيف] :

وإذا ما خلا الجبان بأرض طلب الطعن وحده والنزالا

وقوله [من الخفيف] :

ومن الخير بطء سيبك عني أسرع السحب في المسير الجهام

وقوله [من الطويل] :

وليس الذي يتبع الوبل رائداً كمن جاءه في داره رائد الوبل

وقوله [من المنسرح] :

أبلغ ما يطلب النجاح به الـ ـطبع وعند التعمق الزلل

وقوله [من البسيط] :

كم مخلص وعلا في خوض مهلكة وقتلة قرنت بالذم في الجبن

وقوله [من المتقارب] :

وما قلت للبدر أنت اللجين ولا قلت للشمس أنت الذهب

ومن ركب الثور بعد الجوا د أنكر أظلافه والغبب

وقوله [من البسيط] :

فقر الجهول بلا قلب إلى أدب فقر الحمار بلا رأس إلى رسن

لا يعجبن مضيما حسن بزته وهل يروق دفينا جودة الكفن

وقوله [من الوافر] :

إذا ما الناس جربهم لبيب فإنى قد أكلتهم وذاقا

فلم أر ودهم إلا خداعا ولم أر دينهم إلا نفاقا

وقوله [من الطويل] :

ذرينى أنل مالا ينال من العلا

فصعب العلا فى الصعب والسهل فى السهل

تريدين لقيان المعالى رخيصة ولابد دون الشهد من إبر النحل

وقوله [من الطويل]:

تمن يلذ المستهام بمثله وإن كان لا يغنى فتيلا ولا يجدى

وغيظ على الأيام كالنار فى الحشا ولكنه غيظ الأسير على القد

وقوله [من الكامل] :

ومكائد السفهاء واقعة بهم وعداوة الشعراء بئس المقتنى

لعنت مقاربة اللئيم فإنها ضيف يجر من الندامة ضيفنا

وقوله [من الطويل] :

وما الخيل إلا كالصديق قليلة وإن كثرت فى عين من لا يجرب

إذا لم تشاهد غير حسن شياتها وأعضائها فالحسن عنك مغيب

وقوله [من الكامل] :

تصفو الحياة لجاهل أو غافل عما مضى منها وما يتوقع

ولمن يغالط فى الحقائق نفسه ويسومها طلب المحال فتطمع

كأنه مأخوذ من قول لبيد [من الرمل] :

أكذب النفس إذا حدثتها إن صدق النفس يزرى بالأمل

وكقوله [من الطويل] :

وأتعب خلق الله من زاد همه وقصر عما تشتهى النفس وجده
فلا ينحلل فى المجد مالك كله فينحل مجد كان بالمال عقده
ودبره تدبير الذى المجد كفه إذا حارب الأعداء والمال زنده
فلا مجد فى الدنيا لمن قل ماله ولا مال فى الدنيا لمن قل مجده
إذا كنت فى شك من السيف فابله فإما تنفيه وإما تعده
وما الصارم الهندى إلا كغيره إذا لم يفارقه النجاد وغمده

وقوله [من الخفيف] :

إنما تنجح المقالة فى المر ء إذا وافقت هوى فى الفؤاد
وإذا الحلم لم يكن فى طباع لم يحلم تقادم الميلاد
إنما أنت والد ، والأب القا طع أحنى من واصل الأولاد

وقوله [من الطويل] :

وما الحسن فى وجه الفتى شرفاً له إذا لم يكن فى فعله والخلائق
وما بلد الإنسان غير الموافق ولا أهله الأدنون غير الأصادق
وجائزة دعوى المحبة والهوى وإن كان لا يخفى كلام المنافق
وما يوجع الحرمان من كف حارم كما يوجع الحرمان من كف رازق

وقوله [من الخفيف] :

إنما أنفس الأنيس سباع يتفارسن جهرةً واغتيالا
من أطاق التماس شىء غلابا واقتساراً لم يلتمسه سؤالا
كل غاد لحاجة يتمنى أن يكون الغضنفر الرئبالا

وقوله [من البسيط] :

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يفقر والإقدام قتال

وقلما يبلغ الإنسان غايته ما كل ماشية بالرجل شملال
إنا لفي زمن ترك القبيح به من أكثر الناس إحسان وإجمال
ذكر الفتى عمره الثاني ، وحاجته ما قاته ، وفضول العيش أشغال

وقوله [من الوافر] :

يرى الجبناء أن العجز حزم وتلك خديعة الطبع اللئيم
وكل شجاعة في المرء تغني ولا مثل الشجاعة في الحكيم

قيل له : أنى يكون الشجاع حكيما ؟ فقال : هذا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ! .

وكم من عائب قولا صحيحاً وآفته من الفهم السقيم
ولكن تأخذ الأذهان منه على قدر القرائح والعلوم

وقوله [من الكامل] :

ولقد رأيت الحادثات فلا أرى يققاً يميت ولا سوادا يعصم(١)
والهم يخترم الجسيم نحافة ويشيب ناصية الصبي ويهرم
ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم
لا يخدعنك من عدو دمعه وارحم شبابك من عدو يرحم
لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

قال ابن جني : أشهد بالله لو لم يقل غير هذا البيت لتقدم به أكثر المحدثين

---

(١) اليقق ـ بفتح الياء والقاف جميعا ـ الشديد البياض ، ويقال : أبيض يقق ، كما يقال : أسود حالك ، وأراد بياض الشعر بسبب اشتعال الشيب فيه ، كما أراد بالسواد سواد الشعر في زمن الشباب . يقول : البياض في الشعر لا يكون سبباً في الموت فقد يعيش الشيخ ، وسواد الشعر لا يكون سبباً في الحياة فقد يموت الشاب .

وهذه الأبيات كلها غرر وفرائد ، لا يصدر مثلها إلا عن فضل باهر ، وقدرة على الإبداع ظاهرة .

والظلم من شيم النفوس ، فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم
ومن البلية عذل من لا يرعوى عن جهله ، وخطاب من لا يفهم
ومن العداوة ما ينالك نفعه ومن الصداقة ما يضر ويؤلم

وقوله [من الطويل] :

أرى كلنا يبغى الحياة لنفسه حريصاً عليها مستهاماً بها صبا
فحب الجبان النفس أورده التقى وحب الشجاع النفس أورده الحربا
ويختلف الرزقان والفعل واحد إلى أن ترى إحسان هذا لذا ذنبا

وقوله [من الوفر] :

وفيك إذا جنى الجانى أناة تظن كرامة وهى احتقار
بنو كعب وما أثرت فيهم يد لم يدمها إلا السوار
بها من قطعه ألم ونقص وفيها من جلالته افتخار
لهم حق بشركك فى نزار وأدنى الشرك فى نسب جوار
لعل بنيهم لبنيك جند فأول قرح الخيل المهار (١)
وما فى سطوة الأرباب عيب ولا فى ذلة العبدان عار (٢)

وقوله [من البسيط] :

من اقتضى بسوى الهندى حاجته أجاب كل سؤال عن هل بلم
ولم تزل قلة الإنصاف قاطعة بين الرجال وإن كانوا ذوى رحم

(١) القرح : جمع قارح ، وهو : ما بلغ التاسعة من عمره من ذوات الحافر ، والمهار : جمع مهر .
(٢) العبدان : أحد جموع العبد

هون على بصر ما شق منظره فإنما يقظات العين كالحلم
لاتشكون إلى خلق فتشمته شكوى الجريح إلى الغربان والرخم
وكن على حذر للناس تستره ولا يغرنك منهم ثغر مبتسم
وقت يضيع وعمر أنت مدته في غير أمته من سائر الأمم
أتى الزمان بنوه في شبيبته فسرهم وأتيناه على الهرم

وقوله [من الكامل] :

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أول ، وهي المحل الثاني
فإذا هما اجتمعا لنفس مرة بلغت من العلياء كل مكان
ولربما طعن الفتى أقرانه بالرأي قبل تطاعن الأقران
لولا العقول لكان أدنى ضيغم أدنى إلى شرف من الإنسان

وقوله [يمدح كافورا] [من الطويل] :

لحا الله ذي الدنيا مناخا لراكب فكل بعيد الهم فيها معذب !
ألا ليت شعري هل أقول قصيدة ولا أشتكي فيها ولا أتعتب ! ؟
وبي ما يذود الشعر عني أقله ولكن قلبي ، يا ابنة القوم ، قلب
أما تغلط الأيام في بأن أرى بغيضاً تنائي أو حبيبا تقرب ؟

وقوله [يمدحه أيضا] [من الطويل] :

أبي خلق الدنيا حبيباً تديمه فما طلبي منها حبيبا ترده ؟
وأسرع مفعول فعلت تغيرا تكلف شيء في طباعك ضده

وقوله [يمدحه أيضا] [من الطويل] :

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدق ما يعتاده من توهم
وعادى محبيه بقول عداته وأصبح في ليل من الشك مظلم

ومنها :

وما كل هاو للجميل بفاعل ... ولا كل فعال له بمتمم

ومنها :

فأحسن وجه في الورى وجه محسن ... وأيمن كف فيهم كف منعم
وأشرفهم من كان أشرف همه ... وأكثر إقداماً على كل معظم
لمن تطلب الدنيا إذا لم ترد بها ... سرور محب أو مساءة مجرم ؟

وقوله [يمدح المغيث بن على العجلى] [من الوافر] :

فؤاد ما تسليه المدام ... وعمر مثل ما يهب اللئام
ودهر ناسه ناس صغار ... وإن كانت لهم جثث ضخام
وما أنا منهم بالعيش فيهم ... ولكن معدن الذهب الرغام
وشبه الشيء منجذب إليه ... وأشبهنا بدنيانا الطغام
ولو لم يعل إلا ذو محل ... تعالى الجيش وانحط القتام
ولو حيز الحفاظ بغير عقل ... تجنب عنق صيقله الحسام

وقوله [من الخفيف] :

أبداً تسترد ما تهب الدنـ ... ـيا فياليت جودها كان بخلا
فكفت كون فرحة تورث الغـ ... ـم وخل يغادر الوجد خلا
وهى معشوقة على الغدر لا تحـ ... ـفظ عهداً ولا تتمم وصلا
كل دمع يسيل منها عليها ... وبفك اليدين عنها تخلى

أى : كل من أبكته الدنيا فإنما يبكى لفوت شىء منها . ولا يخليها الإنسان إلا قسرا بفك يديه .

وفى هذه القصيدة :

شيم الغانيات فيها فلا أد ... رى لذا أنث اسمها الناس أم لا ؟

ولذيذ الحياة أنفس في النفـ ـس وأشهى من أن يمل وأحلى
وإذا الشيخ قال أف فما مـل حياة وإنما الضعف ملا
آلة العيش صحة وشباب فإذا وليا عن المرء ولى

* * *

ومنها اقتضاضه أبكار المعاني في المراثي والتعازي

كقوله [من المنسرح] :

سالم أهل الوداد بعدهم يسلم للحزن لا لتخليد

أي : إذا مات الصديق يسلم صديقه للحزن لا للخلود ، لأن كلا ميت

فما ترجى الخلود من زمن أحمد حاليه غير محمود

أي : أحمد حاليك أن تبقى مع صديقك ، وهو مع ذلك غير محمود لتعجيل الحزن وانتظار الأجل .

وقوله [من الكامل] :

المجد أخسر والمكارم صفقة من أن يعيش بها الكريم الأروع
والناس أنزل في زمانك منزلا من أن تعايشهم وقدرك أرفع
قبحا لوجهك يا زمان ، فإنه وجه له من كل قبح برقع
أيموت مثل أبي شجاع فاتك ويعيش حاسده الخصي الأوكع ؟

وقوله [من البسيط] :

عدمته وكأني سرت أطلبه فما تزيدني الدنيا على العدم
من لا يشابهه الأحياء في شيم أمسى يشابه الأموات في الرمم

أحسن والله وأبدع ما شاء ! .

وقوله [من الطويل] :

وقد فارق الناس الأحبة قبلنا وأعيا دواء الموت كل طبيب

سبقنا إلى الدنيا ، فلو عاش أهلها　　منعنا بها من جيئة وذهوب
تملكها الآتى تملك سالب　　وفارقها الماضى فراق سليب

هذا كقول بعضهم فى الموعظة : « وإن مافى أيديكم أسلاب الهالكين ، ويستخلفها الباقون كما تركها الماضون »

علينا لك الإسعاد إن كان نافعا　　بشق قلوب لا بشق جيوب
فرب كئيب ليس تندى جفونه　　ورب كثير الدمع غير كئيب
وللواجد المكروب من زفراته　　سكون عزاء أو سكون لغوب(١)

وقوله [من الكامل] :

ما كنت أحسب قبل دفنك فى الثرى　　أن الكواكب فى التراب تغور
ما كنت آمل قبل نعشك أن أرى　　رضوى على أيدى الرجال تسير
خرجوا به . ولكل باك خلفه　　صعقات موسى يوم دك الطور(٢)
حتى أتوا جدثا كأن ضريحه　　فى كل قلب موحد محفور
كفل الثناء له برد حياته　　لما انطوى فكأنه منشور

وقوله فى تعزية سيف الدولة عن أخته [من الخفيف] :

ولعمرى لقد شغلت المنايا　　بالأعادى فكيف يطلبن شغلا
وكم انتشت بالسيوف من الدهـــر　　أسيراً وبالنوال مقلا
خطبة للحمام ليس لها رد　　وإن كانت المسماة ثكلا
وإذا لم تجد من الناس كفواً　　ذات خدر أرادت الموت بعلا

---

(١) اللغوب : الاعياء الشديد .

(٢) بين هذا البيت والذى قبله فى الديوان بيتان لم يذكرهما هنا ، وهما قوله :

والشمس فى كبد السماء مريضة　　والأرض راجفة تكاد تمور
وحفيف أجنحة الملائك حوله　　وعيون أهل اللاذقية صور

هذا أحسن ما قيل فى مرثية حرم الملوك .

وقوله فى مرثية طفل لسيف الدولة وتعزيته عنه [من الطويل] :

فإن تك فى قبر فإنك فى الحشا ... وإن تك طفلا فالأسى ليس بالطفل
ومثلك لا يبكى على قدر سنه ... ولكن على قدر المخيلة والفضل
عزاءك سيف الدولة المقتدى به ... فإنك نصل ، والشدائد للنصل
ولم أر أعصى فيك للحزن عبرة ... وأثبت عقلا ، والقلوب بلا عقل
تخون المنايا عهده فى سليله ... وتنصره بين الفوارس والرجل
ويبقى على مر الحوادث صبره ... ويبدو كما يبدو الفرند على الصقل
وما الموت إلا سارق دق شخصه ... يصول بلا كف ويسعى بلا رجل
يرد أبو الشبل الخميس عن ابنه ... ويسلمه عند الولادة للنمل
إذ ما تأملت الزمان وصرفه ... تيقنت أن الموت ضرب من القتل
وما الدهر أهل أن يؤمل عنده ... حياة وأن يشتاق فيه إلى النسل

وقوله [من السريع] :

نحن بنو الدنيا فما بالنا ... نعاف ما لا بد من شربه
تبخل أيدينا بأرواحنا ... على زمان هن من كسبه
فهذه الأرواح من جوه ... وهذه الأجسام من تربه
لو فكر العاشق فى منتهى ... حسن الذى يسبيه لم يسبه
لم ير قرن الشمس فى شرقه ... فشكت الأنفس فى غربه
يموت راعى الضأن فى جهله ... موتة جالينوس فى طبه
وربما زاد على عمره ... وازداد فى الأمن على سربه
وغاية المفرط فى سلمه ... كغاية المفرط فى حربه ؟
فلا قضى حاجته طالب ... فؤاده يخفق من رعبه !

* * *

ومنها الايجاع في الهجاء

كقوله [من المجتث] :

إن أوحشتك المعالى فإنهـا دار غربه
أو آنستك المخازى فإنها لك نسبه

وقوله [من البسيط] :

إنى نزلت بكذابين ضيفهم عن القرى وعن الترحال محدود
جود الرجال من الأيدى ، وجودهم من اللسان ، فلا كانوا ولا الجود !
ما يقبض الموت نفساً من نفوسهم إلا وفى يده من نتنها عود

يعنى العود الذى يتناوله المعالج للشيء القذر ليكون واسطة بينه وبين يده

وقوله [من البسيط] :

العبد ليس لحر صالح بأخ لو أنه فى ثيـاب الحر مولود
لا تشتر العبد إلا والعصا معه إن العبيد لأنجاس مناكيد
من علم الأسود المخصى مكرمة أقومه البيض أم آباؤه الصيد ؟
أم أذنه فى يد النخاس دامية أم قدره وهو بالفلسين مردود ؟
وذاك أن الفحول البيض عاجزة عن الجميل فكيف الخصية السود

كأنه من قول أبى على البصير [من الخفيف] :

عجز الراكب البصير ، وأولى منه بالعجز راجل مكفوف

وقوله [من السريع] :

فلا ترج الخير عند امرىء مرت يد النخاس فى رأسه

وقوله [من الوافر] :

أخذت بمدحه فرأيت لهواً مقالى للأحيمق يا حليم
ولما أن هجوت رأيت عياً مقالى لابن آوى يا لئيم

فهل من [غادر فى ذا وهـذا فمدفوع إلى السقم السقيم

وقوله [من المتقارب] :

لقدكنت أحسب قبل الخصى بأن الرءوس مقر النهى

فلما نظرت إلى عقله رأيت النهى كلها فى الخصى

وقوله [يهجو إسحاق بن إبراهيم بن كيغلغ] [من الكامل] :

يمشى بأربعة على أعقابه تحت العلوج ومن وراء يلجم

وجفونه ما تستقر كأنها مطروفة أو فت فيها حصرم

وتراه أصغر ما تراه ناطقا ويكون أكذب مايكون ويقسم

وإذا أشار مكلما فكأنه قرد يقهقه أو عجوز تلطم

يقلى مفارقة الأكف قذاله حتى يكاد على يد يتعمم

* * *

ومنها إبراز المعانى اللطيفة
فى معارض الألفاظ الرشيقة الشريفة
والرمز بالطرف والملح

كقوله فى الجمع بين مدح سيف الدولة وقد فارقه ، وبين مدح كافور وقد قصده فى بيت واحد [من الطويل] :

فراق ومن فارقت غير مذمم وأم ومن يممت خير ميمم

ثم قال معرضا بسيف الدولة :

وما منزل اللذات عندى بمنزل إذا لم أبجل عنده وأكرم

رحلت فكم باك بأجفان شادن على ، وكم باك بأجفان ضيغم

المصراع الثانى تصديق لقوله :

* ليحدثن لمن ودعتهم ندم *

وما ربة القرط المليح مكانه بأجزع من رب الحسام المصمم

فلو كان ما بى من حبيب مقنع عذرت ، ولكن من حبيب معمم

وهذا أيضا مما نبهت عليه من إجرائه الممدوح من الملوك مجرى المحبوب فى كثير من شعره :

رمى واتقى رمىي . ومن دون ما اتقى هوى كاسر كفى وقوسى وأسهمى

وكقوله فى مدح كافور والتعريض بالقدح فى سيف الدولة [من البسيط] :

قالوا : هجرت إليه الغيث ؟ قلت لهم : إلى غيوث يديه والشآبيب

إلى الذى تهب الدولات راحته ولا يمن على آثار موهوب

ولا يروع بمغرور به أحدا ولا يفزع موفورا بمنكوب

يا أيها الملك الغانى بتسمية فى الشرق والغرب عن نعت وتلقيب

يعنى أنا مستغن بشهرته عن لقب كلقب سيف الدولة

أنت الحبيب ولكنى أعوذ به من أن أكون محبا غير محبوب

وهذا أيضا من ذاك .

وقوله من قصيدة لسيف الدولة بعد ما فارق حضرته يعرض باستزادة يومه وشكر أمسه ، وهو من فرائده [من المتقارب] :

وإن فارقتنى أمطاره فأكثر غدرانها ما نضب

وإنى لأتبع تذكاره صلاة الإله وسقى السحب

ومنها فى التعريض بكافور :

ومن ركب الثور بعد الجوا د أنكر أظلافه والغبب

وقوله فى هز كافور والتعريض باستزادته [من الطويل] :

أبا المسك هل في الكأس فضل أناله   فإني أغني منذ حين وتشرب

يقول : مديحي إياك يطربك كما يطرب الغناء الشارب ، فقد حان أن تسقيني من فضل كأسك

وهبت على مقدار كفي زماننا   ونفسي على مقدار كفيك تطلب

وقوله أيضاً في التعريض بالاستزادة [من الطويل] :

أرى لي بقربي منك عينا قريرة   وإن كان قربا بالبعاد يشاب

وهل نافعي أن ترفع الحجب بيننا   ودون الذي أملت منك حجاب ؟

أقل سلامي حب ماخف عنكم   وأسكت كيما لا يكون جواب

وفي النفس حاجات وفيك فطانة   سكوتي بيان عندها وخطاب

وكقوله في وصف الفرس [من الطويل] :

ويوم كليل العاشقين كمنته   أراقب فيه الشمس أيان تغرب

وعيني إلى أذني أغر كأنه   من الليل باق بين عينيه كوكب

أي : كأنه قطعة من الليل ، وكأن الغرة في وجهه كوكب ، وعينه إلى أذنه لأنه كامن لايرى شيئاً ، فهو ينظر إلى أذني فرسه ، فان رآه قد توجس بهما تأهب في أمره وأخذ لنفسه ، وذلك أن أذن الفرس تقوم مقام عينيه وتقول العرب : أذن الوحشي أصدق من عينيه

له فضلة عن جسمه في إهابه   تجيء على صدر رحيب وتذهب

شققت به الظلماء أدني عنانه   فيطغى ، وأرخيه مراراً فيلعب

أي : إذا جذبت عنانه طغى برأسه لطماحه وعزة نفسه ، وإذا أرخيت عنانه لعب برأسه

وأصرع أي الوحش قفيته به   وأنزل عنه مثله حين أركب

وكقوله في التوديع [من الوافر] :

وإنى عنك بعـــد غـد لغاد وقلبى فى فنائك غـــير غاد
محبك حيث ما اتجهت أركابى وضيفك حيث كنت من البلاد

وكقوله [من الكامل] :

سر حيث شئت يحله النوار وأراد فيك مرادك المقدار
وإذا ارتحلت فشيعتك سلامة حيث اتجهت وديمة مدرار
وأراك دهرك ماتحاول فى العدا حتى كأن صروفه أنصار
أنت الذى بجح الزمان بذكره وتزينت بحديثه الأسمار

وكقوله فى اللطف بالصديق والعنف بالعدو [من الكامل] :

إنى لأجبن عن فراق أحبتى وتحس نفسى بالحمام فأشجع
ويزيدنى غضب العداة جراءة ويلم بى عتب الصديق فأجزع

وكقوله فى حسن الكناية [من الخفيف] :

تشتكى ما اشتكيت من ألم الشو ق إلينا ، والشوق حيث النحول

وإنما كنى عن تكذيبها ولم يصرح به : أى أنا أشتكى الشوق ونحولى يدل على ذلك ، وهى غير ناحلة فليست مشتاقة

وكقوله [من الرجز] :

أبيض ما فى تاجه ميمونه عفيف ما فى ثوبه مأمونه

أى : عفيف الفرج ، فكنى به

وكقوله فى حسن الحشو [من الكامل] :

صلى عليك الله غير مودع وسقى ثرى أبويك صوب غمام

« غير مودع » حشو ، ولكنه حسن

وكقوله [من الطويل] :

ويحتقر الدنيا احتقار مجرب يرى كل مافيها ، وحاشاك ، فانيا

سبحان الله ! ما أحسن الحشو بقوله « وحاشاك » ! .

وكقوله [من البسيط] :

إذا خلت منك حمص، لا خلت أبدا! فلا سقاها من الوسمى باكره

وكقوله فى العيادة [من الكامل] :

لا تعذل المرض الذى بك، شائق أنت الرجال ، وشائق علاتها(١)

ومنازل الحمى الجسوم ، فقل لنا : ما عذرها فى تركها خيراتها ؟

أى : لا عذر للحمى فى تركها جسمك ، إذ هو أفضل الجسوم .

وكقوله [من المنسرح] :

قصدت من شرقها ومغربها حتى اشتكتك البلاد والسبل

لم تبق إلا قليل عافية قد وفدت تجتديكها العلل

وقوله [من الوافر] :

تجشمك الزمان هوى وودا وقد يؤذى من المقت الحبيب

وكيف تعلك الدنيا بشىء وأنت لعلة الدنيا طبيب ؟

وكيف تنوبك الشكوى بداء وأنت المستجار لما ينوب ؟

وكقوله فى التهنئة وهى تهنئة سيف الدولة [من البسيط] :

المجد عوفى إذ عوفيت والكرم وزال عنك إلى أعدائك الألم

وما أخصك فى برء بتهنئة إذا سلمت فكل الناس قد سلموا

وكقوله [من الخفيف] :

إنما التهنئات للأكفاء ولمن يدنى من البعداء

---

(١) « شائق » خبر مقدم ، و « أنت » مبتدأ مؤخر ، و « الرجال » مفعول به لشائق ، و « شائق » الثاني معطوف على الأول ، و « علاتها » مفعوله . والشائق : باعث الشوق ، يقول : ألم بك المرض لأنك باعث له على الحب لك .

وأنا منك لا يهنئ عضو بالمسرات سائر الأعضاء

وكقوله [من البسيط] :

الصوم والفطر والأعياد والعصر منيرة بك ، حتى الشمس والقمر

(١) ما الدهر عندك إلا روضة أنف يا من شمائله فى دهره زهر

ما ينتهى لك فى أيامه كرم فلا انتهى لك فى أعوامه عمر

فإن حظك من تكرارها شرف وحظ غيرك منها النوم والسهر

وكقوله [من الطويل] :

تغير حالى والليالى بحالها وشبت وماشاب الزمان الغرانق

وكقوله [من البسيط] :

تسود الشمس منا بيض أوجهنا ولا تسود بيض العذر واللمم

وكان حالهما فى الحكم واحدة لو احتكمنا من الدنيا إلى حكم

وقوله [من الطويل] :

مشب الذى يبكى الشباب مشيبه فكيف توقيه وبانيه هادمه

وما خضب الناس البياض لأنه قبيح ، ولكن أحسن الشعر فاحمه

* * *

ومنها حسن المقطع

كقوله [من البسيط] :

قد شرف الله أرضاً أنت ساكنها وشرف الناس إذ سواك إنسانا

قال ابن جنى : لا يعجبنى قوله « سواك إنسانا » لأنه لا يليق بشرف ألفاظه ، ولو قال « أنشاك » أو نحو ذلك لكان أليق بالحال .

---

(١) وقع فى الديوان بين هذا البيت والبيت السابق بيت آخر وهو قوله :

ترى الأهلة وجها عم نائله فما تخص به من دونها البشر

قلت أنا : ولو قال غير ما قاله لم يكن فصيحا شريفا . لأن فى القرآن « ثم سواك رجلا » (١) ولا أفصح ولا أشرف مما ينطق به كتاب الله عز ذكره
وكقوله [من المتقارب] :

سما بك همى فوق الهموم فلست أعد يساراً يسارا
ومن كنت بحرا له يا علـــى لم يقبل الدر إلا كبـارا

وكقوله [يمدح سيف الدولة] [من المتقارب] :

أنلت عبادك ما أملوا أنالك ربك ما تأمل

وكقوله [فى المغيث بن على العجلى] [من الوافر] :

وأعطيت الذى لم يعط خلق عليك صلاة ربك والسلام

ذكر آخر شعره وأمره

لما أنجحت سفرته ، وربحت تجارته بحضرة عضد الدولة ، ووصل إليـه من صلاته أكثر من مائتى ألف درهم ـ استأذنه فى المسير عنها ليقضى حوائج فى نفسه ، ثم يعود إليها ، فأذن له ، وأمر بأن تخلع عليه الخلع الخاصة ، ويقاد إليه الحملان الخاص . وتعاد صلته بالمـال الكثير . فامتثل ذلك ، وأنشده أبو الطيب الكافية التى هى آخر شعره ، وفى أضعافها كلام جرى على لسانه كأنه ينعى فيه نفسه ، وإن لم يقصد ذلك . فمنه قوله [من الوافر] :

فلو أنى استطعت خفضت طرفى فـــلم أبصر به حتى أراكا

وهذه لفظة يتطير منها . ومنه :

إذا التوديع أعرض قال قلبى عليك الصمت لا صاحبت فاكا

---

(١) من الآية ٣٧ من سورة الكهف

ولولا أن أكثر ما تمنى   معاودة لقلت ولا مناكا

أي : لو أن أكثر ما تمنى قلبي أن يعاودك لقلت له : ولا بلغت أنت أيضا مناك ، وهذا أيضا من ذاك . ومنه :

قد استشفيت من داء بداء   وأقتل ما أعلك ما شفاكا

أي : قد أضمرت بالقلب شوقا إلى أهلك ، وكان ذلك داء لك ، فاستشفيت منه بأن فارقت عضد الدولة ، ومفارقته داء لك أيضا أعظم من داء شوقك إلى أهلك ، وهذا شبه قول النبي صلى الله عليه وسلم « كفى بالسلامة داء » قول حميد بن ثور [من الطويل] :

« وحسبك داء أن تصح وتسلما »

و « أقتل ما أعلك ما شفاكا » من ألفاظ الطيرة أيضا . ومنه :

وكم دون الثوية من حزين   يقول له قدومى ذا بذاكا

الثوية : من الكوفة . يقول له « قدومى ذا بذاك » أي هذا القدوم بتلك الغيبة ، وهذا السرور بذلك الحزن ، لم يقل « إن شاء الله تعالى » ومنه :

ومن عذب الرضاب إذا أنخنا   يقبل رحل تروك والوراكا

تروك : اسم ناقة لم ير مثلها لعضد الدولة أمر له بها ، والوراك : شيء يتخذه الراكب كالمخدة تحت وركه

يحرم أن يمس الطيب بعدى   وقد عبق العبير به وصاكا[1]

وهذا أيضا من تلك الألفاظ . ومنه :

وفى الأحباب مختص بوجد   وآخر يدعى معه اشتراكا

إذا اشتبهت دموع فى خدود   تبين من بكى ممن تباكى

(١) صاك : أراد أنه لصق به

وهذا أيضا من ذاك . ومنه :

فزل يا بعد عن أيدي ركاب   لها وقع الأسنة في حشاكا

هذه استعارة حسنة لأنه خاطب البعد وجعل له حشا . ومنه :

وأياً شئت يا طرقي فكوني   أذاة أو نجاة أو هلاكا

جعل قافية البيت الهلاك فهلك ، وذلك أنه ارتحل عن شيراز بحسن حال ووفور مال ، فلما فارق أعمال فارس حسب أن السلامة تستمر به كاستمرار في مملكة عضد الدولة ، ولم يقبل ما أشير به عليه من الاحتياط باستصحاب الخفراء والمبذرقين ، فجرى ما هو مشهور من خروج سرية من الأعراب عليه ومحاربتهم إياه ، وتكشف الوقعة عن قتله وابنه محسد ونفر من غلمانه ، وفوز الأعراب بأمواله وذلك في سنة أربع وخمسين وثلثمائة

أنشدني أبو القاسم المظفر بن علي الطبسي الكاتب لنفسه في مرثية المتنبي [من الخفيف] :

لا رعى الله سرب هذا الزمان   إذ دهانا في مثل ذاك اللسان

ما رأى الناس ثاني المتنبي   أي ثان يرى لبكر الزمان؟

كان من نفسه الكبيرة في جيـ   ـش وفي كبرياء ذي سلطان

كان في لفظه نبياً ، ولكن   ظهرت معجزاته في المعاني

فصل — وقد جمح بي القلم في إشباع هذا الباب وتذييله ، وتصييره كتابا برأسه في أخبار أبي الطيب والاختيار من أشعاره والتنبيه على محاسنه ومساويه وقد كان بعض الأصدقاء سألني عمل ذلك ، وله الآن فيه كفاية ، وبه غنية ، فإن أحب إفراده عن الأبواب كان كتابا على حدة ، وإن نشط لانتساخ الجميع تضاعفت الفوائد لديه ، وانثالت القلائد عليه . بمشيئة الله وإرادته .

والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما

* * *